مطبوعات جمعية الرابطة الثقافية

العراق

في القرن السابع عشر

كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه

نقله الى العربية، وعلق حواشيه

بشير فرنسيس و كوركيس عواد

مطبعة المعارف — بغداد

١٩٤٤

سلسلة رحلات الاجانب في العراق : ١

المقدمة

١ — سبب الترجمة :

أقدمنا على ترجمة ما ورد عن العراق في « رحلة تافرنييه » ، ونحن على يقين من فراغ الخزانة العربية من مصادر وافية بتاريخ العراق في أدواره المختلفة ، وخصوصاً ما كان منها يتعلق باخبار هذه البلاد في العصور الاخيرة ، كالعصر الذي زار فيه تافرنييه بلاد العراق ، ووصف أحوالها بما يراه القارىء في تضاعيف هذا الكتاب .

٢ — النسخة التي استندنا اليها :

دوّن تافرنييه حديث رحلاته باللغة الفرنسية . وقد طبعت مدوناته سنة ١٦٧٦ م ، ثم جدد طبعها سنة ١٧١٣ م .

وهذه الرحلة نقلت بكمالها الى الانكليزية ، وطبعت في لندن سنة ١٦٧٨ م .

ولقد كان اعتمادنا في نقل كتابنا ، على هذه الترجمة الانكليزية في بادىء الامر ، ثم راجعنا الترجمة على الاصل الفرنسي بطبعته المجددة .

٣ — ماذا أخذنا ، وماذا تركنا من الرحلة ؟

قلّ بين الرحالين الأقدمين من أبناء الغرب ، من جاب أصقاع الارض بنطاق واسع ، كالذي فعله تافرنييه في رحلاته الست التي

دار فيها أغلب الاقطار الاوربية ، وشاهد ايضاً بلاد الشرقين الادنى والاوسط ، بل بلغ به المطاف الى جزر الهند الشرقية ووصل بلاد اليابان ، ووصف كل ما مر به بما أتيح له .

ولما كانت غايتنا خدمة بلادنا العراقية ، عمدنا الى ما كتبه هذا الرحالة عن العراق ، فنقلناه كاملا الى العربية ، دون ما تغيير أو تحوير . بل تجاوزنا هذا الحد في بعض الاحيان ، لاعتقادنا ان الموضوع لا يستتم إلا بوصل أوله بآخره . من ذلك اننا عندما نقلنا كلام المؤلف في وصف الطريق بين حلب واصفهان مثلا ، اضطررنا الى ان نساير المؤلف في خطواته من مدينة حلب حتى بلوغه مدينة اصفهان ، اي اننا نقلنا جانباً من وصف المؤلف لشطر من بلاد سورية وشطر من بلاد ايران . ولو لم نفعل ذلك لجاء وصفه للبلاد العراقية التي مر بها مبتوراً ناقصاً .

وتمسكاً بالاصل ، فقد احتفظنا بعناوين فصول الرحلة وارقامها فيرى القارئ ، ان اول بحث في هذا الكتاب عنوانه « الفصل الثالث من الكتاب الثاني من الرحلة » ، لأن ما قبل ذلك لا يدخل في نطاق بحثنا المتعلق بالعراق .

٤ — طريقة المؤلف في التدوين :

والمؤلف ، في حديث رحلاته ، يكاد يتبع أسلوب

«اليوميات» ، فهو يدون ما يريد تدوينه بحسب تعاقب زيارته للمواطن التي يتكلم عليها . ولقد وجدناه في غير مكان من رحلته يعيد ماسبق أن قاله . فابقينا على ذلك كله محافظة على الاصل .

٥ — تعليقاتنا :

بعد أن فرغنا من نقل كلام المؤلف ، وجدنا فيه اموراً عديدة تفتقر الى تعليقات تنير السبيل للقارئ في معرفة ما يطالعه بالوجه الصحيح . وفي الواقع ان بين اقوال المؤلف ـ وهو غريب عن هذه الديار ـ ما يعتريه الوهم او الغموض او الالتباس . فرأينا في السكوت على ذلك تقصيراً . لذلك عمدنا الى تقويم أود ذلك بالتعليقات : نفسر هذا ، ونوضح ذاك ، ونتسع في الآخر . حتى قام من مجموع تعليقاتنا مواد كثيرة . اغنت مادة الكتاب ، ورفعت من مستواه التاريخي .

وقد وجدنا بعض التعليقات طويلا ، لا تتسع لها حواشي الصحائف ، ففصلناها وجعلناها « ملاحق » متسلسلة أدرجناها بآخر الكتاب.

٦ — تصحيف الاعلام في الاصل:

ولا نريد ان نختم كلمتنا هذه دون الاشارة الى أمر ذي بال جابهنا أثناء النقل ، ذلك ان المؤلف ، في ايراده اسماء الأمكنة ، كثيراً ما يذكرها بصورة مصحفة او مغلوطة . فكان ذلك من المشاكل

المسيرة التي حاولنا تذليلها جهد المستطاع .

ان مثل هذه الاسماء ، اوردناها بحروفها الفرنجية ليرى القارئ مبلغ ابتعادها عن التسمية المعروفة بها .

والامثلة على ذلك عديدة ، نذكر منها : Odoine وهو يريد به نهر « العظيم » ، و Dar al - Sani يريد بها « دار السلام » ، و Conaguy وهو يقصد « خانقين » ، و Casered ومراده بها « قزلرباط » ، الى كثير غيرها .

ولنا ان نقول ، ان بعضاً من الاسماء ، لم نتمكن - مع الاسف - من التوصل الى حقيقة امره ، فابقينا اسمه بالفرنجية كما ورد في الرحلة ذاتها ، وجعلنا مكان اسمه بالعربية خالياً ، إذ لعل هنالك من يستطيع ان يجد اسمه الحقيقي .

٧ — الفهارس :

وقد لاحظنا ، بعد انتهاء عملنا من الكتاب ، بان لاغنى عن وضع « فهارس » محكمة مفصلة تيسر الرجوع الى النص ، وترشد المطالع الى مواطن ما يرغب فيه . فكان من ذلك هذه الفهارس المختلفة التي يجدها القارئ في آخر الكتاب .

٨ — كلمة شكر :

ولا بد لنا ، ان نتقدم بالشكر الى كل من آزرنا من الباحثين .

الافاضل في تحقيق عملنا بالوجه الاكمل ، وقد أشرنا الى اسم كل منهم في موطنه من الكتاب .

كما اننا نتقدم باسداء جزيل شكرنا الى جمعية الرابطة الثقافية في بغداد ، التي أبدت لنا كل تشجيع ومعاضدة في هذا السبيل ، واخذت على عاتقها اصدار هذا الكتاب بنفقتها الخاصة ، خدمة للعلم ونشراً للثقافة ، اللذين هما من الاهداف العالية التي تسعى هذه الجمعية الى تحقيقها .

بشير فرنسيس كوركيس عواد



JEAN BAPTISTE TAVERNIER
Baron d'Aubone,
en habit Persien, qui lui fut donné en 1665
par le Roy de Perse.

صورة المؤلف بملابس فارسية

(منقولة عن رحلاته ، بالاصل الفرنسي)

جان باتيست تاڤرنييه

JEAN BAPTISTE TAVERNIER

(١٦٠٥ — ١٦٨٩ م)

روى تاڤرنييه عن نفسه، في مقدمة كتابه « الرحلات الست » ، قائلا :

« لو جاز لي أن اعد اثر التربية ولادة ثانية ، لقلت واثقاً باني جئت الى هذا العالم وفيّ رغبة في الاسفار . فالمحاورات اليومية التي كانت تدور بين طائفة من العلماء ووالدي في المواضيع الجغرافية التي كان له فيها القدح المعلى ، كنت أصغي اليها بكليتي بالرغم من حداثة سني . فخثت فيّ الشوق لمشاهدة بعض هاتيك الاقطار التي كانت تمثل امامي بخرائط لم يكن يهون عليّ رفع نظري عنها . وهكذا ما بلغت الثانية والعشرين من عمري ، حتى كنت زرت اجمل بقاع اوربة : فقد شاهدت فرنسة وانكلترة والبلاد المنخفضة والمانية وسويسرة وبولندة والمجر وايطالية . وصرت اتكلم باكثر اللغات لزوماً وذيوعاً .

« وكانت في طليعة البلاد التي قصدتها انكلترة ، في عهد الملك جيمس . ومنها عبرت الى بلاد الفلندرز ، لأرى انتورب (أنفرس) موطن والدي الاصلي . ومنها ذهبت الى البلاد المنخفضة وهنالك ازداد

ميلي الى الاسفار نموا وقوة لما كان يحتشد في تلك الارجاء من الغرباء الذين لقيتهم في امستردام ، وكانوا قد أتوها من كل حدب وصوب » .

* * *

ولد جان بابتيست تاڤرنييه في باريس سنة ١٦٠٥ م . وكان أبوه كبرييل قد هاجر اليها من انتورب مع عمه في نهاية القرن السادس عشر ، وكان كبرييل هذا من مشاهير الجغرافيين والنقاشين.

وكان جان في الخامسة عشرة من عمره ، قد رحل الى جهات اوربة الغربية ،وخدم أهم حكام اوربة ودخل قصورهم . وحارب الترك لما وصلوا حدود بولندة . وكان في إحدى سفراته الأوربية تعرف براهبين فرنسيين وهما دي شاب (M. De Chapes) ودي سان ليباو (M. De St Liebau) كانا يقصدان السفر الى القسطنطينية ومنها الى فلسطين . فاقترحا عليه مرافقتهما ، فلقي الاقتراح هوى من نفسه . وتوجهوا جميعاً الى تلك البلدان . وقضوا ذلك الشتاء في القسطنطينية . وانفصل تاڤرنييه عن الراهبين اللذين تابعا سفرهما الى فلسطين ، فمكث هناك احد عشر شهراً ، ثم التحق بقافلة وذهب الى طوقات وارضروم واريڤان ودخل بلاد فارس ، وبلغ في رحلته الأولى هذه اصفهان . ثم قفل راجعاً بطريق بغداد فحلب

والاسكندرونة ، فمالطة وايطالية حتى بلغ باريس سنه ١٦٣٣ م

وفي أيلول سنة ١٦٣٨ م شرع برحلته الثانية التي دامت حتى سنة ١٦٤٢ م . فسافر بطريق حلب الى فارس ، ومنها الى الهند حتى اغرا (Agra) ، وتوغل في اصقاع الهند حتى بلدة غلكندة . وفي الهند زار بلاط كبير المغول ، وشاهد مناجم الماس التي لم يرها اوربي من قبله . فساقه ذلك الى الاتجار مع هذه البلاد ، خاصة بالجواهر الكريمة وغيرها من المواد النفيسة التي تعاطاها مع أعاظم أمراء الشرق .

وأعقبت هاتين الرحلتين ، أربع رحلات أخرى . ففي رحلته الثالثة (١٦٤٣ - ١٦٤٩ م) وصل في مسيره جزيرة جاوة ، وعاد من طريق رأس الرجاء الصالح .

ودامت رحلته الرابعة من سنة ١٦٥٢ الى ١٦٥٦ م .

والخامسة من ١٦٥٧ الى ١٦٦٢ م .

والسادسة من ١٦٦٣ الى ١٦٦٨ م .

وقد زار تافرنيه في هذه الرحلات الواسعة النطاق ، ممالك اسية الجنوبية ، وجزر الهند الشرقية ، واليابان ، وجنوبي افريقية . وعاد من رحلته الأخيرة وقد اصبح في عداد الأغنياء . وكان قد دار في خلده وقتاً ما من سنة ١٦٤٨ تأسيس شركة للاتجار مع الشرق .

وفي سنة ١٦٦٩ م منحه لويس الرابع عشر ، لقب « نبيل » .

واشترى في سنة ١٦٧٠ م بارونية اوبون (Aubone) بالقرب من جنيف في سويسرة . ولكنه عاد وانهمك ثانية فى الأعمال التجارية .

ومهما يكن من أمر ، فان اواخر سني حياته غامضة . فقد ترك باريس الى سويسرة في سنة ١٦٨٧ م . وفي سنة ١٦٨٩ م عبر الى كوبنهاغن قاصداً بلاد فارس عن طريق روسية ، غير انه وافاه الأجل المحتوم في تلك السنة وهو في موسكو .

وخلاصة القول ، ان تافرنييه عاش أربعاً وثمانين سنة ، قضى منها في أسفاره العديدة زهاء ست وأربعين سنة . وقلّ بين الرحالين من دامت رحلاته مثل هذا الأمد الطويل .

* * *

والذي خلد ذكر تافرنييه ، هو تآليفه في وصف رحلاته الكثيرة في مختلف الأصقاع . وقد أفرغ تافرنييه وصف بعض رحلاته في كتاب عنوانه :

Nouvelle Relation de l'Interieur du Sérail du Grand Seigneur.

وقد طبع في باريس سنة ١٦٧٥م . ثم جدد طبعه سنة ١٧١٣ م.

وهذا الكتاب يستند الى زيارتين للقسطنطينية في رحلته الأولى ورحلته السادسة .

وأشهر من ذلك حديث رحلاته الست ، وعنوانه :

Les Six Voyagеs de J. - B, Tavernier .

وقد طبع في باريس سنة ١٦٧٦ م بمجلدين . ثم اعيد طبعه سنة ١٧١٣ م .

وقد نقل هذه الرحلات جميعاً ، ج . ب (J. P.) الى الانكليزية وطبعها في لندن سنة ١٦٧٨ بعنوان :

The Six Voyages of J. - B. Tavernier through Turky into Persia and the East- Indies .

وقد ظهرت ، سنة ١٨٨٩ ترجمة انكليزية بقلم (V. Ball) لرحلات تافرنييه في بلدان الهند .

* * *

المراجع عن ترجمة حياته :

The Six Voyages of J. - B. Tavernier (London , 1678).
Charles Joret : Jean - Baptiste Tavernier d'aprés des Documents Nouveaux(1886).
Larousse du xxe Siècle (Art . Tavernier).
Encyclopaedia Britannica (Art . Tavernier).



خريطة رحلات المؤلف في الشرق الأدنى (منقولة عن رحلاته ، بالاصل الفرنسي)

الكلام على الطرق العديدة من حلب الى اصفهان بوجه عام وطريق البادية بوجه خاص

بين حلب واصفهان ، تمتدّ خمسة طرق عامة غير الطريقين الآخرين اللذين وصفتهما سابقاً ، وهما المار ان بالأناضول [١] ، فتكون الطرق المؤدية إلى بلاد فارس سبعة ، تتشعب من القسطنطينية وأزمير أو حلب .

وأول الطرق الخمسة ، البادئة من حلب ، يقع في يسار المتجه الى الشمال الشرقي ، ماراً بديار بكر وتبريز .

وثانيها : الطريق الذي يتجه الى الشرق رأساً بمحاذاة بلاد ما بين النهرين ، ماراً بالموصل وهمذان .

والثالث : الى يمين الذاهب الى الجنوب الشرقي ، ماراً ببغداد وكنكور (Kengavar) .

والرابع : هو أكثر الطرق الخمسة اتجاهاً نحو الجنوب ، يجتاز بادية صغيرة ويمر بعانة وبغداد والبصرة .

والطريق الخامس : يخترق البادية الكبيرة ، وهو لا يسلك

---

(١) في الكتاب الاول من رحلة تافرنييه ، وصف موجز لهذين الطريقين

دائماً ، بل يطرق مرة واحدة في السنة عندما يقطعه تجار تركية ومصر لشراء الابل .

وسأسعى الى وصف كل من هذه الطرق في فصول مختلفة . وأول ما ابدأ به منها ما كان يقطع البادية الكبرى .

ان القوافل التي تقصد البصرة سالكةً هذا الطريق ، لاتتحرك حتى موسم هطول الأمطار ، لئلا يعوزها الماء وهي في قفر البادية . ويندر أن يمسك المطر حتى كانون الأول من كل سنة . ان القافلة التي رافقتها ، تحركت في يوم عيد الميلاد ، وكانت تتألف من أربعمائة رجل بين سادة وخدم ، ونحو ستمائة بعير . وكان الكروان باشي [١] وحده ممتطياً صهوة فرسه ، متقدماً القافلة لارتياد المياه واختيار الأماكن الصالحة للمبيت .

أما أنا فأعترف بأنني أرحت نفسي بركوب حصاني الذي احتفظت به طوال إقامتي في حلب . ولا يخفى ان حرية الاحتفاظ

---

(١) لفظة تركية ، ورد ذكرها غير مرة في هذه الرحلة . والمراد بها « رئيس القافلة » الذي ينتخبه المسافرون من بينهم ويناط به تعيين أوقات الحل والرحيل ، واختيار أماكن المبيت ، والفصل ايضاً في المخاصمات التي قد تنشب بين رجال القافلة ، وتمثيل القافلة لدى اصحاب الشأن في البقاع التي تمر بها .

بالخيل لا يسمح بها للافرنج إلا في القسطنطينية وإزمير وحلب .
أما في دمشق وصيداء والقاهرة ، فلا يجيزون بذلك لغير القناصل ؛
ولسائر الناس امتلاك او استكراء الحمير دون غيرها . وهي تتيسر في
الدروب العامة دائماً .

وفي اليوم الثاني ، رحلنا فجراً ، وعند الظهر بلغنا مكاناً فيه خمس
آبار ، بين البئر والأخرى خمسمائة خطوة ، وماؤها عذب جداً ،
فملأنا قربنا منه ، وفي نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر نزلنا في بقعة
لا ماء فيها .

وفي اليوم الذي يليه ، صادفنا قبيل الظهر بئرين كان ماؤهما
عجاً لم يشرب به غير الجمال . وعندها بتنا ليلتنا ايضاً .

لقد مر على سفرنا الآن يومان في البادية ، التي سأصفها وصفاً
موجزاً : انك بعد ان تبتعد فرسخين (١) أو ثلاثة فراسخ من
حلب تدخل البادية فلا يقع نظرك على غير الخيم المنصوبة بدلاً من
المساكن المشيدة . وتمتد هذه البادية صوب الجنوب الشرقي ، بمحاذاة
الفرات حتى تبلغ البصرة وساحل خليج فارس ، ثم تنتهي جنوباً

---

(١) كثيراً ما يستعمل تافرنييه لفظة « الفرسخ » للدلالة على
الأبعاد . والفرسخ زهاء ثلاثة اميال أو خمسة كيلومترات .

بسلسلة الجبال الحاجزة بين البلاد العربية الصخرية (Arabia Petrea) وبلاد العرب السعيدة . وتكاد تكون هذه البوادي خالية من كل شيء الا من الرمال . والأرض في بعض الاماكن أهش مما في أخرى ، بحيث يصعب السير فيها إلا عقيب سقوط الأمطار التي تصاب تلك الرمال وتكتلها . ويندر أن تمر في هذه البوادي بتل أو بواد . فان صادفت شيئاً منها كان ذلك دليلا على وجود الماء هناك وبعض الاحطاب التي تفي بالطبخ ؛ وذلك لتعذر وجود الخشب في انحاء البادية . وغاية مايطاق حمله في حلب على ظهور الجمال من حطب وفحم ينفد في نحو ثمانية او عشرة أيام . ولهذا لا ترى بين الستمائة بعير التي تخترق البادية اكثر من خمسين محملة بالبضائع المؤلفة من الأقمشة الخشنة وقليل من المواد الحديدية ، وبالاخص نسيج قالقوط الأسود والأزرق (١) الذي يستعمله العرب دون تقصيره (٢) . وأما سائر

---

(١) هذا النسيج منسوب الى مدينة قالقوط (Calicut) التي اشتهرت بصنعه . وهي من مدن الهند المشهورة . مر بها ابن بطوطة في رحلته ووصفها بقوله (تحفة النظار ٤ : ٨٨ — ٨٩ طبعة باريس) انها « احدى البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا » . اما اليوم فهي من مدن الهند البريطانية ، ومركز مقاطعة الملبار الساحلية . ولم يبق لها تلك الشهرة في صناعة النسيج الذي عرف باسمها (Calico) .

(٢) تقصير الثوب : تبييضه

الجمال فتحمل من الطعام ما يكفي هذا الحشد من المسافرين طوال ايام سفرهم المديدة في مثل هذه البلاقع المترامية الأطراف .

في الخمسة عشر يوماً الأولى من سفرنا ، لم نر الماء الا مرةً في كل يومين ، وأحياناً في كل ثلاثة أيام . وفي اليوم العشرين بعد خروجنا من حلب ، نزلت القافلة مكاناً فيه بئران ماؤهما طيب جداً . وقد كان كلٌ منا مبتهجاً إذ أتيح له غسل ملاحفه ، وقد رأى الكروان باشي أن نمكث هنا يومين او ثلاثة أيام ، بيد أن الأخبار التي وردتنا أدّت الى الرجوع عما رأى . وذلك اننا ما كدنا نتناول عشاءنا ، حتى رأينا ساعياً معه ثلاثة أعراب راكبين كلهم بغالاً أرسلوا يحملون الأخبار الى حلب وغيرها من مدن الانبراطورية بالاستيلاء على بغداد . فوقفوا عند البئرين لارواء دوابهم . فتقدم اليهم الكروان باشي وغيره من الرجال البارزين في القافلة ببعض الفواكه المجففة والرمان . وقد أفادنا هؤلاء السعاة بأن الجمال التي حملت بأمتعة السلطان وحاشيته قد نالها التعب . ومن المؤكد ان ضباطه سيضعون أيديهم على جمالنا إذا ما التقوا بنا ، ونصحونا بألا ندنو من عانة ، والا أوقفنا أميرها .

وبناء على ما أبلغونا به ، تحركنا في الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل ، وظللنا متجهين جنوباً ، حتى صرنا في وسط البادية .

وبعد ثمانية أيام ، حللنا في بقعة ذات ثلاث آبار وثلاثة أو أربعة بيوت . فمكثنا هناك يومين كاملين للتمتع بهذا المنهل العذب . وما كدنا نأخذ طريقنا ثانية ، حتى جاءنا ثلاثون فارساً مسلحاً قادمين من لدن أحد الأمراء ليبلغوا الكروان باشي بوجوب ايقاف قافلته . فلبثنا عند ذاك أياماً ثلاثة منتظرين قدوم هذا الأمير بفارغ الصبر . فلما حل بيننا ، أهدى اليه الكروان باشي قطعة حريرية ، ونصف قطعة من قماش قرمزي ، وقدرين كبيرتين من النحاس . ولكن مع ان هذه القدور مما لا يمكن أن يرفضها أمير عربي ، لخلو مطبخه من مثيلها ، لم تبد على محياه علائم الرضا بهذه الهدية ، بل طلب منا ما نزيد على أربعمائة كراون [1] . لقد جهدنا سبعة أو ثمانية أيام متمسكين بنقودنا . ولكن عبثاً كان ذلك ، فاننا اضطررنا أخيراً الى جمع هذا المبلغ بتقسيطه بيننا ، كل بما في طاقته ، فلما دفع اليه ، قدم للكروان باشي البلاو [2] والعسل والتمر . وعند مبارحته المكان أعطى القافلة خمس أو ست أغنام مطبوخة .

---

(١) يريد به الليرة الفرنسية التي كانت متداولة يومذاك ، وهو نقد يساوي أربعة شلنات وستة بنسات أي ٢٢٥ فلساً عراقياً .

(٢) البلاو ، لفظة تركية بمعنى الرز المطبوخ وما زال بعض الناس في جهات من العراق يستعمل هذه اللفظة .

وبعد أن فارقنا هذا الأمير العربي بثلاثة أيام ، مررنا ببئرين ، كان بالقرب منهما أبنية قديمة منهارة من الآجر . لقد كان ماء هاتين البئرين شديد المرارة حتى ان الجمال عافته، ومع ذلك ملأنا قربنا منه ، ظانين أننا سنزيل عنه مرارته بغليه . ولكن خاب تقديرنا لأن الأمر كان على العكس من ذلك .

ومن هاتين البئرين اللتين لا يرجى من مائهما خير ، تمادى بنا السير ستة أيام دون أن نلتقي بماء . فاذا أضفنا الى ذلك الأيام الثلاثة السابقة ، كان مجموع ما مر على الجمال من الأيام التي لم تذق خلالها الماء تسعة . وفي نهاية هذه الأيام التسعة سرنا في أرض كثيرة التلول امتدادها ثلاثة فراسخ . وعند حضيض هذه التلول رأينا ثلاث برك ولما كانت الجمال تتنسم رائحة الماء من مسافة نصف فرسخ ، أخذت تسارع في سيرها اليها . وما أن انتهت الى البرك حتى تزاحمت عليها وتدافعت ، فتكدر الماء من جراء ذلك وتلوث . ولهذا قرّ رأي الكروان باشي على المكوث في هذا الموطن يومين أو ثلاثة أيام ، ريثما يصفو الماء . وقد انتهزنا تلك الفرصة لطبخ الرز لأن هناك أحراشاً كثيرة نامية حول البرك . وزاد في ابتهاج الناس هنالك ان الفرصة واتتهم لصنع الخبز ، وقد رأيتهم يخبزونه بالوجه التالي: يحفرون أولاً حفرة مستديرة في الأرض ، عمقها نصف قدم ،

ومحيطها قدمان أو ثلاث ، ويملأونها بالحطب . ثم يوقدون هذا الحطب ويغطون الحفرة بالطابوق أو الأحجار ، الى ان تحمر ، وكانوا حينذاك يحضرون العجين فوق سفرة وهي عبارة عن قطعة مستديرة من النحاس ، يتخذون منها في سائر الأوقات مائدة للطعام. ثم يرفعون الرماد والطابوق وبعد أن ينظفوا الحفرة جيداً يضعون عجينهم فيها ، ثم يغطون الحفرة ثانية بالطابوق أو الاحجار الحارة ، ويدعونها على هذه الحال حتى الصباح . ان الخبز الذي يخبز بهذا الوجه ، لا يزيد ثخنه على اصبعين وكبره بقدر الكعك العادي، وهو الى ذلك لذيذ الطعام جداً .

وفي أثناء مكوث القافلة عند البرك الثلاث ، قضيت أوقاتي بصيد الأرانب والحجلان التي تكثر في هذه البقاع . وفي الليلة التي سبقت مغادرتنا المكان ، ملأنا قربنا ثانية ، وكان الماء قد صفا وطاب وهذا الماء يتجمع من الامطار التي تنهال على هذه المنخفضات . ولكنه يجف في فصل الصيف .

والآن بعد أن رأى الكروان باشي أننا سرنا تسعة أيام دون أن نجد في أثنائها ماء ، رغب عن السفر جنوباً ، وصمم على ان يأخذ طريقه نحو الغرب ، فان لم يصادف ماء في خلال يومين أو ثلاثة ، فانه يغير طريقه لا محالة الى الشمال الشرقي أي الشرق الشتائي ،

رغبة منه في الوصول الى نهر الفرات .

وبعد يومين من تغييرنا الطريق ، اجتزنا بواد بين تلين صغيرين ، صادفنا فيه بركة ماء ، كان على مقربة منها أعرابيان مع كل منهما امرأته واطفاله ، وهما يرعيان قطيعين من المعز والغنم ، واخبرانا انهما ذاهبان الى الموصل . وقد أرشدانا الى أحسن السبل التي تتوفر فيها المياه . وفي الواقع ، اننا من ذلك المكان حتى البصرة ، لم نكن نسير ثلاثة أيام حتى نجد ما يكفينا من الماء .

وبعد خمسة أيام من تركنا هذين الاعرابيين ، اكتشفنا قصراً كبيراً مشيداً كله بالآجر [١] . وفي هذا احتمال على أن البقعة كانت تزرع في الماضي وأن الآجر قد حرق بالتبن . ان في هذا القصر ثلاث رحاب واسعة ، في كل منها أبنية لطيفة ذات طابقين من الاقواس الواحد يعلو الآخر . ومع أن هذه البناية كانت لا تزال قائمة ، فاننا لم نجد من يسكن فيها . هذا وان الأعراب الذين يجهلون الآثار القديمة لم يكن بوسعهم ان يخبرونا عمن بناها . وأمام باب هذا القصر بركة لها قناة قاعها مرصوف بالطابوق وكذلك عقاداتها التي تستوي والارض . ويعتقد الاعراب ان هذه القناة كانت تأتي بالماء من الفرات ، ولكن هذا بعيد الاحتمال بالنظر الى ان الفرات يبعد

---

(١) أنظر الملحق رقم (١) .

عن هذه البقعة نيفاً وعشرين فرسخاً .

ومن ذلك القصر ، واصلنا سيرنا نحو الشمال الشرقي . وبعد ان تمادى بنا السير خمسة أيام انتهينا الى بلدة صغيرة كانت تدعى سابقاً الكوفة والآن تعرف بمشهد علي [١] . حيث ان علياً صهر النبي محمد يرقد هناك في جامع فسيح . ويرى حول الضريح أربعة شمعدانات مضاءة ، وقناديل فوق الرأس مدلاة من السقف .

ومع أن الفرس يكرمون علياً تكريماً بالغاً ، فهم قلما يحجون الى ضريحه ، والسبب في ذلك هو ان الطريق التي يسلكونها قاصدين زيارة الضريح ، لا بد ان تمر ببغداد ، وهي تحت حكم السلطان العثماني . وعلى كل حاج حينذاك ان يدفع رسماً قدره ثمانية قروش ، وهو أمر لم يكن ملك فارس ليرتاح اليه . ان الشاه عباس [٢] كان يرى من المهانة أن تدفع رعيته مالا الى الترك ، فعمد الى صرفهم عن هذه الزيارة بغيرها ، ذلك انه عمر مزاراً في « مشهد » على الطريق من تبريز الى قندهار . ثم ان الملوك الذين خلفوه كانوا من غراره

---

(١) هذا وهم . والصواب ان مشهد علي هو النجف التي تبعد عن الكوفة ١٢ كيلومتراً .

(٢) هو الشاه عباس الكبير ، بن محمد خدا بندا ، أحد ملوك ايران الصفويين دام حكمه من سنة ٩٩٣ الى ١٠٣٧ هـ (= ١٥٨٥ — ١٦٢٨ م) .

في عدم السماح لرعاياهم بزيارة الامام عليّ ، إذ يعتبرون دفع الجزية للسلطان امتهاناً لكرامتهم ، وهذا هو السبب في أن جامع الكوفة لم يعد يتقدم إليه الفرس بالنذور. وعدا عن القناديل والشمعدانات التي تضاء ليل نهار، فان فيه اثنين من القراء يتلوان القرآن . وليس في هذه البلدة غير ثلاث أو اربع آبار ذات ماء آجن ، وقناة جافة [١] يقولون ان الشاه عباس مدها ليجلب فيها ماء الفرات الى البلدة لأجل الحجاج والزوار . أما الطعام فلم نجد منه في هذه البلدة غير التمر والعنب واللوز ، وهذه يبيعونها باسعار عالية . وعندما يؤمها الزوار ، وقليل ما هم ، يوزع الشيخ عليهم عند احتياجهم الى الطعام الرز المطبوخ بالماء والملح وشيء من الدهن يصب فوقه . ونظراً لعدم وجود مرعى للمواشي ، فلا يتوفر عندهم الطعام .

وعلى مسيرة يومين من مدينة علي ، التقينا في الساعة التاسعة صباحا ، بشابين من أسياد العرب ، يلقبان بسلطان ، وكانا اخوين ، أحدهما في سن السابعة عشرة ، والآخر في الثالثة عشرة . ولما نصبنا خيامنا نصبا خيامهما بجوارنا ، وكانت من قماش قرمزي لطيف جداً ، وكانت بين هذه الخيم خيمة مغطاة بالقطيفة الارجوانية ، حاشيتها موشاة بشريط حريري جميل . وما كاد السيدان يستقران في خيامهما

---

(١) راجع الملحق رقم ٢ بصدد ماء النجف .

حتى ذهبنا أنا والكروان باشي لرؤيتهما . ولما علما ان بين رجال القافلة أفرنجاً ، سألاني عما اذا كان لدينا شيء من الطرائف لنبيعها لهما . ولكنني لما أجبتهما بأن ليس هناك ما يستحق شراؤهما له ، ارتابا في صحة قولي ، وأمرا الكروان باشي بأن يتحرى ما في حقائبنا بحضورهما .وفي اثناء التحري ، كان أحد الرؤساء المرافقين للأميرين لا يدع اعرابياً يدنو منها . وقد كان في رفقتنا رسام شاب ، وجد في حقيبته طائفة من الصور ، بعضها يمثل مناظر أرضية ، وبعضها صور أناس ، وغيرها صور غوان مرسومة الى الخصر . فاختار السيدان الشابان عشرين من صور الغواني لا غير . فاردت أن أهديها اليهما . لكنهما أفهماني أنهما يعرفان كيف يدفعان عما أخذا ، وخاصة السيد الأصغر ، الذي كانت تبدو عليه امارات الجود والكرم . فانني أفرحته بما لا يمكن وصفه. ذلك أن اسنانه كانت متسخة جداً ، فطلبت من الجراح الذي كان يرافقني طوال أيام السفر أن ينظفها له ، ففعل ذلك بوجه أرضى الأمير الشاب وأدخل السرور الى نفسه . فكان ثمة أن أرسلا إليّ والى حاشيتي أحسن ما لديهما من طعام ، وأهدى الكروان باشي اليهما نصف قطعة من القماش القرمزي وقطعتين من القماش الموشى بالذهب والفضة . ولما تأهبنا للرحيل ،

أعطاني السلطان الشاب اثني عشر دوكاة (Ducat)[١] قيمة الصور . وبعث الى الكروان باشي وإليّ بقوصرتين من التمر ، وكان أجود ما وقع الينا منذ أن فارقنا حلب .

وحوالي منتصف الليل ، تحرك الأميران ، واتجها شمالاً نحو الفرات . فتحركنا وراءهما متجهين شمالاً الى النهر نفسه . وبعد مسيرة أربعة أيام ، التقينا بأمير ذي نفوذ عظيم في بلاد العرب ، كان آتياً من الجنوب ومتجهاً الى الشمال ، وعليه أن يجتاز الطريق الذي سلكناه . كان هذا الأمير في حدود الخمسين من عمره ، حسن القوام ، لطيف المظهر ، ولم يكن معه أكثر من الفي حصان . أما الثلاثون ألفاً الأخرى التي سمعنا بها ، فقد عبرت منذ بضعة أيام . وكان وراء الألفي حصان خمسون جملا تحمل نساءه . وكانت كجاواتهن[٢]

---

(١) الدوكاة ضرب من النقود . قال القلقشندي في صبح الاعشى (٣ : ٤٤١) في كلامه على الدينار الفرنسي أنه « يعبر عنه أيضاً بالدوكات » ويقول الاب أنستاس ماري الكرملي (النقود العربية وعلم النميات . ص ١١١ الحاشية ٤) ان قيمة الدوكات تختلف بين عشرة فرنكات واثني عشر فرنكا ، فاول ما ضرب الدوكاة (لا الدوكات) في البندقية من أعمال ايطالية ، في المائة الثالثة عشرة للميلاد .

(٢) الكجاوة : لفظة فارسية ، يراد بها المحفة التي توضع على الجمال أو البغال ، ليحمل فيها النساء أو ضعاف الناس في الاسفار الطويلة .

مغطاة بقماش قرمزي ، موشاة حاشيته بالحرير . وفي وسط هذه الجمال ستة يكتنفها الخصيان ، وكانت سجف الكجاوات من الحرير والفضة والذهب . وقد سمحوا لنا بالسير معهم ، دون أن يطلبوا منا التراجع كما هي العادة في الجهات الاخرى من تركية ، عند ما يكون في القافلة نساء . وقد حطوا الرحال على بعد ربع فرسخ منا حيث أردنا النزول لوجود بركتين أو ثلاث هناك ، فحرمونا من مائها . ان هذا الأمير العربي ، يمتلك عدداً كبيراً من أجمل الخيول المطهمة وأجودها ، وعنده غيرها مما هو غير مسرج ولا ملجم ، ومع ذلك فالراكبون يستطيعون توجيهها بعصا قصيرة الى حيث شاءوا ، وإيقافها وهي في أسرع عدوها بمسك اعرافها . وعنده بعض الجياد ذات الأثمان الغالية . ومما يجدر التنويه به ان هذه الجياد لم يرها أحد منا .

ولما كان الكروان باشي يعتقد انه لا يستطيع التخلص من مثل هذا الأمير العظيم بلا مقابل ، فانه وجد عند تجار القافلة سرجاً غالياً مع لجامه وركابه ، وقد صنعت من الفضة وجملت بها ، وكنانة مطرزة مملوءة سهاماً ، وترساً ؛ وتبلغ قيمة الجميع نحواً من ألف ومائة ، أو ألف ومائتي ليرة . ثم أضاف اليها الكروان باشي من عنده قطعة من النسيج القرمزي ، واربع قطع من نسيج الذهب والفضة ، وست

قطع من نسيج الفضة والحرير ،وجعل من جميعها هدية للامير . غير أن الأمير رفضها برمتها ، وطلب استبدال « الطويلات » (١) التي كانت معه ، بمائتي الف قرش ، وهي لعمري مبادلة مجحفة بحق التجار ، فاثارت بينهم نزاعاً شديداً . وبعد اخذ ورد ، ولادرا كنا ان بقدرة الامير أن يعطل قافلتنا عن السير ويهلكنا جوعاً . أقدمنا على جمعها منا ، فجمعت ، ونال الهدية التي ربما لم يكن بامكانه أن ينالها بغير هذا الوجه . وفي خلال اليومين اللذين قضيناهما في وزن النقود ، كان الامير يرسل الطعام الى الكروان باشي . وعند رحيلنا بعث الينا باثنتي عشرة قوصرة تمر ، واربعة من صغار الأبل يسوى الواحد منها نحواً من اربعين كراوناً .

وبعد يومين من سيرنا ، صادفنا شيخاً يعتبر بين الاعراب حكما فيصلا ، كان قاصداً مكة ، وقد قطع شطراً من بلاد العربية السعيدة . وكان معه حاشية على عشرة أو اثني عشر جملا . فمكث طوال الليل معنا . وكان أحد خدمه أصيب قبل يومين بجراح خطيرة من بندقية ، فضمده جراحي واعطاه مرهما ومطهراً . فشكرنا على ذلك غاية الشكر ، وارسل اليّ الغداء وهو عبارة عن صحن كبير من البلاو . وفي اليوم الثاني بعث الينا بشاة مطبوخة . واهداه

(١) انظر الملحق رقم ٣ بصدد الطويلة .

الكروان باشي ذراعين من القماش القرمزي .

وبعد ذلك لم نمرّ في طريقنا بما يستحق الذكر . إلا اننا في اليوم التالي . صادفنا أميراً آخر ، له من العمر نحو من خمس وعشرين سنة ، كان آتياً من الفرات ووجهته البلاد العربية السعيدة . وكان برفقته نحو خمسمائة حصان وثلاثمائة جمل تحمل نساءه . وقد ارسل يستعلم عما تكون قافلتنا ؟ وعند ما علم ان فيها بضعة افرنج ، أحدهم جراح ، أرسل ثانية الى الكروان باشي يطلب اليه أن يتبعه بقافلته الى المكان الذي أزمع أن ينصب خيامه فيه ، ولم يكن بعيداً عن الطريق . ولم نكن نظن اننا سنذهب قصيا في ذلك النهار . إلا انه قادنا الى أطيب بقاع البادية ، فنصبت خيمة الامير ، واستدعى جراحي ، فرأيت أن أرافقه لأعلم ما يريده منه . فألفينا على ذراعه اليسرى قوباء (١) فيها قوبة خبيثة جداً ، بقدر قطعة كراون ، وهي تزول ثم تعاوده في أوقات معلومة من السنة . فسأل الجراح عما إذا كان يستطيع أن يشفيه منها . فاجاب الجراح بان الشفاء ليس مستحيلا ، إن أمكن الحصول على العقاقير اللازمة . فهي ان وجدت شفاه بها شفاء تاماً . فأراد الأمير أخذ الجراح معه، وأعطى له خمسمائة كراون لشراء العقاقير . ولكنني أفهمته ان الدواء لا يكلف مثل

---

(١) القوَباء والقوْباء (بضم القف وفتح الواو او اسكانها) : داء في الجسد يتقشر منه الجلد .

هذا المبلغ ، وان الجراح اذا عثر على الادوية المطلوبة ، فأنا مستعد لدفع ثمنها من عندي . فاقتنع الامير بهذ الـكلام ، وبعث بأحد كبار رجاله الى البصرة ليعود مع الجراح بعد ان يشتري الادوية ، ولبث الامير اياماً ثلاثة ينتظر قدومه . ولـكننا بعد أن تظاهرنا بالتفتيش عما نطلب من اقصى المدينة الى اقصاها (إذ كنا نبحث عن هذه الادوية في المحلات التي نعرف انها خالية منها) أعدنا رسول الامير اليه ، معتذرين عن عدم إيجاد العقاقير المطلوبة ، ومن ثمة عن عدم عودة الجراح اليه لزوال الفائدة من حضوره . وهي الوسيلة الوحيدة الناجعة التي فكرنا انها تساعدنا على الافلات منه بمهارة .

وفي الايام التي اعقبت مفارقتنا الامير العربي ، كنا في ارض خالية من السكان . وفي اليوم التالي وهو اليوم الخامس والستون ، والاخير من بقائنا في البادية ، صادفنا خرائب بعض البيوت على جانبي الطريق ، مما جعلنا نفترض بان مدينة كبيرة كانت تقوم سابقاً في هذه البقعة (١)

واخيراً بلغنا البصرة . وسأصفها في موطن آخر من حديث رحلتي .

---

(١) يريد بها خرائب مدينة البصرة القديمة . فهي مما ينطبق عليها قوله انها « مدينة كبيرة » .

وفي اثناء مكوثي في البصرة ، الذي دام نحو ثلاثة اسابيع وصل اليها سفير من عظيم المغول ، كان قد ذهب من القسطنطينية الى بغداد لتهنئة السلطان على فتحه تلك المدينة (١) واخذها في مثل هذا الوقت الوجيز . وقد أهدى الانبراطور له ثلاثة من جياد الخيل ، وساعة صغيرة علبتها مكفتة بالماس والياقوت . إلا ان السفير لعدم معرفته ماهية هذه الآلة الصغيرة ، ملأها من الجهة المعاكسة فكسر لولبها . ولما جاء الى البصرة استدعى الرهبان الكرمليين (٢) وطلب منهم اصلاح ساعته ، لأنه كان يخشى فقدان رأسه إن عاد سيده ولم يره الساعة . وقد كنت مقيما في دار الكرمليين . فهؤلاء لما لم يعرفوا

---

(١) أي فتح مدينة بغداد وسيرد الكلام على ذلك في غير هذا المكان من الرحلة

(٢) للرهبان الكرمليين في البصرة تاريخ طويل تجد تفاصيله في كتاب :

Sir H. Gollancz: Chronicle of Events between the Years 1623 and 1733 relating to Settlement of the Order of Carmelites in Mesopotamia (Bassora). (Oxford; 1927; xxIII + 669 P.)

وكان اول قدومهم اليها في سنة ١٦٢٣ يتقدمهم باسيليوس البرتغالي ، فسموا في هداية الصابئة . راجع : الاثار الخطية للاب أنطون رباط (ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠ و ٤٣٦ ـ ٤٤٩) ، وذخيرة الاذهان لنصري (٢ : ١٩٥) . وما زال الكرمليون في البصرة الى هذا اليوم .

سبيل اصلاحها ، طلبوا مني ابداء مهارتي في ذلك . فتناولت الساعة ووضعت لها لولبا جديداً ، فصلح حالها . ولما رأى السفير ما أنا عليه ، بالرغم من ان ماصنعته كان شيئا تافها ، عرض علي ما لا يمكن وصفه من الخدمة وحسن الالتفات . وعلى ذلك فان الرهبان الكرمليين والاغسطينيين ، رجوا مني ان اطلب من السفير ، نيابة عنهم ، ان يستحصل لهم من السلطان كتاب أمان يضمن لهم فيه ، سلامة بيوتهم وكنائسهم في حالة استيلائه على البصرة . فقمت بذلك ، ونلت بوساطته الأمان التام من الوزير الاول . ولكن الرهبان لم يحتاجوا اليه ، لأن الترك لم يقوموا بأية محاولة لأخذ البصرة ، لسماعهم أن الفرس قادمون اليها . هذا الى أن موسم الامطار كان على وشك الحلول ، مما لا يتيح لجيش ما البقاء في ساحات القتال . ولو أن بغداد ذاتها صمدت ثمانية أيام أخرى ، لاضطر السلطان الى رفع الحصار والجلاء عنها .

وبما انني تطرقت الى ذكر الجياد العربية ، علي ان أقول ان منها ماهو غال بل غال جداً . فقد دفع سفير المغول للواحد منها ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ و ٦٠٠٠ كراون ولغيرها دفع ٨٠٠٠ كراون . ولكن الحصان لم يكن ليباع بأقل من عشرة آلاف . ولهذا عدل عن شرائه فلما آب الى وطنه في بلاد الهند ، وقدم لعظيم المغول تلك الخيول

التي حملها معه ، وكانت جياداً جميلة جداً ، أخبر سيده كيف انه دفع ٨٠٠٠ كراون عن حصان أجمل من أي واحد أتى به ، بيد ان صاحبه لما لم يرض ان يبيعه بأقل من عشرة آلاف ، تركه . فغضب الملك لتوقف سفيره عن شراء الحصان بمثل هذا المبلغ الزهيد ، بينما كان الشراء لواحد من أعاظم ملوك الدنيا ، ولامه على ذلة نفسه ، وأقصاه عن حضرته بنفيه مدى الحياة الى مقاطعة نائية عن البلاط . ثم كتب الملك الى الانكليز ليشتروا له الحصان ، ففعلوا ذلك وجلبوه الى سورات بالهند حيث دفع لهم الحاكم ثمنه . غير ان الحصان مالبث ان مات في رامبور .

ولن أنسى قط انه حين كنت في البصرة ، حلقت في سمائها ، في خلال مرتين ، سدود من الجراد كانت تبدو من بعيد كأنها السحب ، فاظلمت الارض به . ان الجراد يمر بالبصرة أربع أو خمس مرات في السنة ، تحمله الرياح من البادية التي فيها مولده وهلاكه . ولو لم تدفعه الريح بهذا الوجه لما ترك نبتاً يعيش على الارض في بعض أقسام كلدية . يطير هذا الجراد فوق بلدان خليج فارس . ولما تأتي المراكب الى هرمز (١) (Ormuz) في أي وقت من السنة ،

(١) جزيرة تقع في خليج فارس ، عند المضيق المسمى باسمها ، وهي على مسافة ميل وثلاثة ارباع الميل من ساحل ايران .

نجد ركابها دكاكين صغيرة يبيع فيها الناس الجراد المقلي بالدهن لمن يحب هذا اللون من الطعام . وقد حداني حب الاستطلاع ذات مرة ، أن فتحت بطن جرادة طولها ستة إنجات : فوجدت داخلها سبع عشرة جرادة صغيرة تتحرك . ومن هذا يمكن ان يحزر بسهولة كيف تتكاثر تلك الحشرات ، خاصة في البلدان الحارة .

وهناك عدة سفن وقوارب تمخر من هرمز ، لتجهيز جانبي خليج فارس بالحاجات الضرورية ، حيث الناس هناك لا يأكلون الخبز ولا الرز . وقد اتفقت مع صاحب احد هذه القوارب ، وكان الاتفاق على ان لا نزيد ما يحمله القارب على نصف وسقه ، لأنهم على العموم يحملونها بما هو فوق طاقتها . وفي الاحوال الجوية الرديئة يضطرون الى ان يرموا بنصف الحمل انقاذاً للبقية .

ومن البصرة الى فم نهر الفرات (١) عشرون فرسخاً من الماء العذب . لقد انتظرنا موآتاة الرياح لنا سبعة ايام كاملة ، لنتمكن من الاقلاع بسفينتنا . ثم وصلنا الى بندر ريك (٢) (Brander - Ric) بثمانٍ واربعين ساعة . هذا هو المكان الذي يجب ان تنزل فيه إن قصدت بلاد فارس ، ما لم تكن مستهدفاً هرمز . يتألف بندر ريك

---

(١) هذا وهم من المؤلف ، والصواب انه شط العرب .

(٢) بليدة صغيرة على ساحل الخليج الفارسي ، في شمال بوشهر .

من خمسة او ستة أكواخ صغيرة لصيادي السمك ، وهذه الاكواخ عبارة عن أغصان مصفوفة أحدها يقابل الآخر ، ومسقفة بعثاها ، حيث يسكنون هم وعائلاتهم .ويؤتى الى بندر ريك بالتمر محملاً على الحمير . وقد اضطررت ان أكتري واحداً منها لعدم تيسر الخيل هناك .

وقضينا ستة أيام في الطريق من بندر ريك الى كازرون (Cazerom) (١) ، وهي بقعة جبلية كثيرة الغابات . وعليك ان تقيم في الحقول لعدم وجود الخانات في الطريق . ان هذا الطريق مؤنس في بعض أقسامه ، فهو يمر بضفاف نهيرات عديدة وخلال احراش مخضرة تكثر فيها السلاحف التي قتلنا منها كثيراً فأكلنا بعضه مع البلاو بدلاً من الدجاج ، وشوينا بعضه الآخر مستخدمين العصي مكان السفافيد .

وكازرون بلدة صغيرة حقيرة البناء ، فيها خان واحد لا يفي براحة الغرباء النازلين فيه .

ومن كازرون الى شيراز مسيرة خمسة ايام . والطريق تمر بأرض جبلية كثيرة الحزون ، لم يكن سلوكها ممكناً لولا همة علي قولي خان

---

(١) بليدة في ايران ، نفوسها زهاء ٧٠٠٠ نسمة ، وهي بين بوشهر وشيراز .

حاكم شيراز ، الذي شق فيها طرقاً لم تكن من قبل ، وربط الجبال بالقناطر ، ولولاها لتعذر اجتيازها . وفي وسط الجبال فجوة عريضة يمتد منها سهل محيطه نحو عشرين فرسخاً ، لا يسكنه غير اليهود ، وهؤلاء القوم يشتغلون بحياكة الحرير . وفي هذه الجبال تقوم أنظارك على خيم ينزل فيها الكلدانيون الذين ينتجعون تلك البقاع صيفاً طلباً للهواء البارد والتماساً للمرعى الوفير .

ولما انتهيت الى شيراز ، اتخذت حصاناً لركوبي من هناك الى أصفهان التي لم أبلغها الا بتسعة أيام . والاراضي التي تمر بها بين هاتين المدينتين ، سهول وجبال تجد فيها البور كما ترى فيها المزروع . فاذا سرت ثلاثة أيام عن شيراز جابهك جبل مائين (Mayen) ومائين بليدة ليس فيها ما يستحق الذكر . وبعد مسيرة يومين منها تدخل في سهول ولاية كشكي زرد (Cuscuzar) التي فيها يحفظ ملك فارس خيوله للسباق . وفي اليوم التالي وصلت الى يزدي خست (Yesdecas) التي يصنع فيها أجود الخبز الايراني [١] وهي بليدة تقوم على نشز من الارض ، فيها خان لطيف جداً . وعند قاعدة

---

(١) ذكر المؤلف ، في الفصل التاسع من الكتاب الاول من رحلته ، مثلا سائراً بين الفرس ، سمعه منهم ، مؤداه : « من يبتغ السعادة ، فليتزوج بامرأة من يزد ، وليأكل خبز يزدي خست ، وليشرب خمرة شيراز » .

النشز نهير ينساب في واد ينمو فيه القمح الجيد الذي يصنع خبزاً ويصدر من هذه المدينة .

وقد قطعت المسافة من يزدي خست الى أصفهان بثلاثة ايام .
ان هذا الطريق كان أول طريق سلكته من حلب الى أصفهان .

الفصل الرابع (من الكتاب الثاني من الرحلة)

الطريق بين حلب وأصفهان ، عبر ما بين النهرين وبلاد آشور

وهو الطريق الذي سلكته في رحلتي الثالثة

الى الهند وجزرها

في رحلتي الثالثة الى الهند وجزرها ، قمت من باريس في السادس من كانون الاول سنة ١٦٤٣ ، وذهبت الى ليغرن[١] (Ligorn) فوجدت الاسطول الهولندي على أهبة الاقلاع الى بلاد المشرق (Levant) . ويبدو على السفينة التي أقلتني انها أشبه بمركب حربي منها بمركب تجاري . ثم عبرنا مضيق مسينة، ورسونا أمام المدينة اربعة أيام . وبعد أن اجتزنا بحر المورة ، دخلنا الارخبيل حيث تفرق الأسطول ، كل سفينة بحسب ما تبتغيه من اتجاه . فابحرت سفينتنا رأساً الى مينا الاسكندرونة . وبالرغم من ان الريح كانت مؤاتية لسير السفينة ، فقد صدتنا سفينة قرصان مدة من الزمن واعاقت سيرنا ، عندما كنا على بعد من ساحل جزيرة كاندي[٢] الشرقي . ولقد حاولنا التخلص منها ، ولكن القرصان كانت لهم اليد الطيا . فتأهبنا لمناجزتهم . ثم اطلق القرصان علينا من سفينتهم ثلاث

---

(١) ميناء في ساحل ايطالية الغربي ، بين رومة وجنوة .

(٢) هي جزيرة كريت . راجع الملحق رقم (٤) .

طلقات مرقت من فوق مركبنا دون أن تصيبه بأذى ، فرددنا عليها بمثلها من سفينتنا ، فأصابت أولى طلقاتنا صاري المقدمة ، والثالثة أصابت مرقب السفينة ، وقتلت من رجاله كما لاحظنا ذلك . وفي تلك الهنيهة صرخ أحد بحارتنا من أعلى رأس الصاري قائلا : سفينة من الجنوب ! فولى عنا القرصان ليتعقبوها ، وسررنا نحن بالنجاة منهم . ثم تابعنا سفرنا الى الاسكندرونة فوصلنا اليها مغتبطين . ومنها أخذت حصاناً الى حلب كما مر وصفه .

وفي سادس آذار ، غادرت حلب برفقة اثنين من الرهبان الكبوشيين ، وهما الاب روفائيل والاب ايفس (Yves) وبندقي اسمه دومنيكو دي سنتيس (Dominico de Santis) .

ومن حلب الى البيرة [١] (Bir) القائمة عند معبر الفرات ، مسيرة اربعة ايام للراكب ، والبقعة كثيرة الأحراش وفيرة الزروع .

وفي سابع آذار ، أعاقنا المطر الغزير عن بلوغ المحطة المتادة ، فلم نصل الى تل باشر (٢) : البلدة التي تلي البيرة ، ولما لم نجد خاناً

---

(١) البيرة مدينة على الفرات الاعلى ، تعرف اليوم باسم بيره جك .

(٢) وصفها ياقوت الحموي (معجم البلدان ١ : ٨٦٤ طبعة وستنفلد) بانها « قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان ، واهلها نصارى ارمن ، ولها ربض واسواق ، وهي عامرة آهلة » .

نبيت فيه ، اضطررنا الى الوقوف على بعد فرسخ منها في هذا الجانب واللجوء الى كهف يسع ثلثمائة حصان ، وهو كهف يلجأ اليه غالباً البدو او رعاة البقر الذين يعيشون عيشة الاعراب ، اما في كهوف أو في أكواخ حقيرة . وكان النقر قد تمادى في هذا الكهف ، فكثرت فيه التجاويف التي صارت تبدو غرفاً صغيرة . أما رئيس قافلتنا (الكروان باشي) فانه حذراً من وجود كمين في ذلك الكهف سبقنا لاستطلاع المكان ، فوجده خالياً خاوياً ، فاسترحنا هناك تلك الليلة . وفي الليلة الثانية ، نزلنا في ميزار (Mezara) وهي قرية صغيرة لاخان فيها . ولم نمر في طريقنا اليها بما يستحق الذكر . إلا ان قرب الكهف ، في الجبل ، ماء طيباً قراحاً . وكان فوق الجبل سابقاً حصن لاتزال بعض أخربته بادية للعيان . وتشرف قمته بامتداد البصر على منظر جميل أخاذ . فهناك حيث توجهت السهول اليانعة ، والأراضي الخصبة التي تسقيها جداول مختلفة يأتي ماؤها من الفرات . كما ان كل النهيرات التي نعبرها من حلب الى البيرة مستمدة من الفرات ذاته .

وفي اليوم الرابع من مغادرتنا حلب ، وهو اليوم التاسع من آذار ، بلغنا ضفاف الفرات ، فأبصرنا البيرة في الجانب الآخر من النهر . ولما كان نقل جميع الأحمال الى الضفة الثانية من النهر في يوم

واحد غير ممكن في بعض الاحوال ، فقد أقيم هناك خان كبير مربع يحمي التجار من البدو ، وإلا ساورهم القلق وصاروا عرضة لشر اللصوص . فلولا هذا الخان لما حوفظ عليهم ولا على بضائعهم بهذا الوجه المأمون .

ويعبر نهر الفرات بمعبر كبير من القوارب ، وعند بلوغ ضفته الثانية ، يهرع ضابط الـكمرك ورجاله الى تسجيل البضائع ، وتدوين أسماء التجار مالكيها . أما قافلتنا ، فلم تدخل المدينة المشيدة بهيئة مدرج نصف دائري ، عند سفح جبل وعر ، بل سلكت طريقاً رديئاً ووجهتها خان يعلو قمة الجبل . وبالقرب من هذا الخان طائفة من الغرف المنقورة في جوف الصخر ، يلجأ اليها من لا يتسع الخان له . وعند المساء جاءنا ضابط الـكمرك يتقاضى رسومه ، وهي قرشان عن كل حمل من البضاعة إن كانت محملة على حصان أو بغل ، ذلك بغض النظر عن ان ما تحمله البغال يفوق ما تحمله الخيل كثرة ، ويتقاضى نصف قرش عن كل دابة تحمل المتاع . أما الخيل والبغال المسرجة فلا رسم يؤخذ عليها .

والبيرة ، او بيره جك (Berygeon) كما يسميها اهلها ، من بلدان الشرق الكبيرة ، تقع على حافة تل ، وفي أسفل المدينة من جهة النهر حصن يبدو انه قديم ، طوله نصف طول المدينة ،

ولكنه ضيق ، وليس فيه من التحصينات غير برج مطل على النهر ، ذي ثمانية او تسعة مدافع حقيرة . وفي أعلى المدينة حصن آخر يقيم فيه حاكم المدينة وهو « آغا » ويلقبه بعضهم بـ « باشا » . وبامرته مائتا انكشاري (١) وأربعمائة سپاهي (٢) . ان المدينة مبنية بناء سقيما على غرار معظم بلدان الدولة العثمانية . غير ان الطعام فيها متوافر قد تناهت كثرته وخرجت عن الحد المعتاد ، فخبزها نفيس ، وخمرها فاخرة ، وفيها أطيب الأسماك .

وفي عاشر آذار ، بعد أن سرنا لاحدى عشرة ساعة في أول أراضي ما بين النهرين الواقعة بين دجلة والفرات ، وهي التي يسمونها الآن ديار بكر (Diar Bek) ، وصلنا مساء الى شرملي وهي بلدة حسنة جداً ، ذات خان جميل وحمامات في أطرافها . وعلى ضعف رمية بندقة منها ، ينهض جبل فرد ، كأنه مونت مارتر قرب باريس . وحوله السهول ، وفوق قمته قلعة يحميها مائتا سپاهي ،

---

(١) الانكشارية ، لفظة محرفة من التركية يليچري (من : يني = جديد ، چري = جيش) وهم جنود مشاة في الجيش العثماني ، دام أمرهم منذ القرن الرابع عشر الى التاسع عشر للميلاد .

(٢) لفظة تركية فارسية ، اصلها « سپاه » ومعناها العسكر والفرسان والنسبة اليها سپاهي كانت تطلق سابقاً على خيالة الترك وقد انحل أمرهم من بعد سنة ١٨٢٦ م

لأن الأعراب يعبرون الفرات أحياناً ويغيرون على ذلك الجانب.
ففي سنة ١٦٣١ حينما كان الوزير الأول عائداً من بغداد، وقد فقد معظم جيش السلطان دون التمكن من أخذ المدينة، فانه خوفاً من أن يفقد رأسه ان رجع الى القسطنطينية بهذه الخيبة، ولعلمه بما له من سامي المنزلة في قلوب جنوده، صمم على الاقامة فوق هذا الجبل، وتشييد قلعة تحميه مما قد يتهدده. ولا شك انه لو أفلح في تحقيق خطته لاستطاع أن يسود على كل ما بين النهرين، ولخلق للسلطان قلقاً زائداً. وذلك انك إذا قصدت حلب، سواء أكان قيامك من تبريز، أم من الموصل، أم من بغداد ـ هذا ما لم يكن سفرك بطريق البادية ـ لابد أن تمر بشرملي للتزود بالطعام والماء، وشرملي هذه تشرف عليها القلعة المذكورة. ولقد سار العمل في القلعة سيراً حثيثاً، فأقيم حصن مكين، واستطاع الوزير ان يسوّر الجبل، بما فيه الخان، بسور ثخنه عشرون قدماً، وارتفاعه ثلاث قامات. وفيما كان منهمكا في عمله، خنقه بعض من ركن اليهم أشد الركون، ممن استمالهم السلطان اليه، بالوعد او بالوعيد.

وفي الحادي عشر من آذار، بعد مسيرة عشر ساعات، انتهينا الى اورفا، وفيها تمكث القوافل عادة ثمانية أو عشرة أيام، لأن فيها مؤجري الخيل والبغال، ولهم على الدوام أشغال وعلاقات

بهذا المكان . وحللنا في خان يبعد ٣٠٠ أو ٤٠٠ خطوة عن شمالي المدينة . وعندما يزدحم هذا الخان بالمسافرين ، يلجأ من لا يتسع الخان لهم الى كهوف قريبة منه ، وهي أماكن جيدة حسنة . وهنا يأتي جابي الرسوم فيحصي الأحمال دون فتحها ، فالذين يحملون خرجة [١] عليهم أن يدفعوا عنها رسم نصف حمل ، وإلا يفتح الخرج ليرى ان كان فيه سلعة تجارية ما . وعلى التاجر حينذاك ان يدفع الرسم كاملا .

أورفا عاصمة ما بين النهرين ، وهي كما يقولون مبنية في البقعة التي عاش فيها إبراهيم الخليل ، حيث كانت تقوم أدسا (Edessa) القديمة . ويروي أهالي تلك الجهات ، ان بلاط الملك أبجر (Abagarus) كان في هذه المدينة ، ولا تزال ترى فيها خرائب حصن ، منه ـ كما يروون ايضاً ـ ارسل هذا الملك الى المسيح طالباً صورته ، وواهباً إياه مملكته وشعبه للدفاع عنه ضد اليهود ، الذين عادوه على ماانتهى اليه [٢] . وتروي تواريخ الأرمن أن أبجر كان من ابناء جلدتهم وانهم ، في أيام حكمه ، صاروا نصارى واعتمدوا على يد واحد من التلاميذ ، بعث به المسيح الى ذلك الملك بعد قيامته .

---

(١) الخرجة ، جمع خرج ، وهو الكيس يوضع على ظهر الدابة .

(٢) راجع الملحق رقم (٥) .

ولم يتخرب هذا الحصن خراباً نهائياً ، إذ لا تزال فيه قاعة فسيحة وثلاث أو أربع غرف جميلة فيها معالم فسيفساء . لقد حثني الشوق على رؤية أجل ما في المدينة ، فأخذوني الى فسقية كبيرة كأنها بركة سمك ، وهي تنبع من تحت أسس الجامع الكبير الذي كان بني إكراماً لأبراهيم الخليل . ويقول نصارى تلك الأنحاء ، إن في هذا المكان صلى إبراهيم قبل أن يضحي بابنه إسحق ، وان ينبوعين من الماء نبطا من البقعتين اللتين وضع عليهما ركبتيه ، وهذان الينبوعان يملآن الفسقية الكبيرة التي أشرت اليها . ان هذه الفسقية مبلطة بالصخر ، وزاخرة بالسمك . فاذا رميت اليه قطعة صغيرة من الخبز ، تبعك حيثما تنقلت في ضفاف البركة . وليس من يتعرض لهذا السمك ، فان الترك يكرمونه جداً ويسمونه سمك ابراهيم . ويفيض الماء من هذه الفسقية فيسقي المدينة كلها . وما حول الفسقية مغطى بسجاجيد جميلة ، بعرض نحو عشرين خطوة . أما ماء هذه الفسقية فينصب في الأخير في نهر محاذ للسور . ان الكهوف التي تتفجر منها عينا الماء ، لا يسمح لك بالذهاب اليها ما لم تخلع نعليك . وانه لفضل عميم على النصراني إن سمح له بمشاهدتها . وقد كلفني هذا الفضل ستة قروش . ورأيت أيضاً كنيسة للارمن يقولون ان تحت بابها ، عاش القديس الكسيس سبع عشرة سنة عيشته النسكية . ويقوم هذا

الباب في وسط رحبة الكنيسة ، في أعالي المدينة . أما كنيستهم الكبرى ، فعلى مسيرة ربع ساعة من المدينة ، بناها القديس أفرام المدفون فيها (١) . والدير قائم بكماله ، يحيط به سور لطيف . ولقد شاهدت في الكنيسة نسخة كبيرة من الكتاب المقدس مكتوبة بالحروف الأرمنية . وضريح القديس أفرام في مغارة عند قاعدة الجبل ، يتصل به مصلى فيه ثلاثة أو أربعة قناديل موقدة على الدوام . وهناك مغاور أخرى في أعلى الجبل واسفله تضم قبوراً نصرانية قديمة العهد . ان مدينة أورفا ، تقع في أرض غاية في الخصب ، تمتد شرقا الى ما وراء البصر . وبالقرب من أسوار المدينة بساتين غنّ ، تسقيها قنوات صغيرة مدت الى هذه الأنحاء . وتعصر هناك الخمرة الجيدة . وهكذا يتمكن الانسان أن يعيش في أورفا كما لو يعيش في

---

(١) هو مار أفرام السرياني ، أشهر شعراء الارميين واوسعهم شهرة ولد في نصيبين في أوائل المائة الرابعة للميلاد . ثم انتقل منها الى أدسا ، فانكب حينذاك على الدرس والتأليف . وتوفي فيها سنة ٣٧٣ م . ولمار أفرام تآليف لا تحصى وضعها بالارمية ، ضاع الكثير منها ، وطبع غير واحد مما سلم منها ويغلب على تآليفه النظم . وبينها المواعظ والتسابيح والميامر وشروح الاسفار المقدسة . ان تآليفه قد نقلت من قديم الزمان ، الى اليونانية والارمنية والقبطية والحبشية واللاتينية والعربية . وبعض هذه النقول قد انتهى الينا .

أي ناحية من نواحي بلاد الترك . ولدى إقامتي فيها ، اصطدت من بساتينها شيئاً كثاراً من الدج الصغير (١) . وفي الواقع ، ان الطيور البرية لعلى غاية الكثرة في هذه البقعة وأسوار المدينة مبنية بالحجارة ، وكذلك الشرفات والابراج . أما البيوت ضمن المدينة فصغيرة الحجم ، حقيرة البناء ، مهدمه . وفي المدينة ميادين عديدة متباعدة ، تخلق لأورفا مظهر بادية أكثر منها مدينة كبيرة . ويحكم المدينة باشا ، بامرته ١٥٠ أنكشاري و ٦٠ سپاهي . وهذه الحامية أحوج الى الخيالة منها الى المشاة لتواتر غارات الاعراب عليها ، وخصوصاً في موسم الحصاد . وبوجيز الكلام وجدنا أورفا البقعة التي يبالغ فيها الناس في لبس الجلود المعروفة بالقرطبية (٢) ، لأن مياه تلك البقعة تهبها ذلك الجمال الممتاز . هذا ، وان الجلود الصفر تلبس في أورفا ، والزرق في طوقات ، والحمر في ديار بكر .

وفي اليوم العشرين من آذار (سنة ١٦٤٤ م) غادرنا أورفا ،

---

(١) يسمى بالانكليزية Field - Fares وهو على ما في « معجم الحيوان » للمعلوف : الدج الصغير . قال الدميري في وصفه (حياة الحيوان الكبرى ١ : ٣٧٧ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ) انه « طائر صغير في حد اليمام ، من طير الماء ، سمين ، طيب اللحم . وهو كثير بالاسكندرية وما يشابهها من بلاد السواحل . قاله ابن سيده »

(٢) يسمى بالفرنجية Cordovan

فحللنا بعد مسيرة ست ساعات في قرية حقيرة فيها خان خرب ، وفسقية ذات ماء نمير ، وهذا كل ما يرتاح اليه المرء في تلك القرية . أما الطعام فلا يمكن الحصول عليه .

وفي اليوم الحادي والعشرين ، سرنا تسع ساعات ونزلنا قرب مغاور كثيرة عميقة جداً ، في مداخلها غرف صغيرة ، يظن انها مأوى رعاة تلك البقعة الذين يرعون ابقارهم هناك . ويمكن الاستفادة من ماء المطر المنحبس في بعض تجاويف الصخور . ويجب ان تقضي سفر نصف يوم في اختراق الصخور الوعرة ، التي يكاد يتعذر السير فيها ، ومن الخطر ان ترجع بدابتك الى الوراء .

وفي اليوم الثاني والعشرين ، بعد ان سرنا إحدى عشرة ساعة ، دنونا من مغارة ، ثم عبرنا نهيراً ينساب عند قدميها . وهناك على جانبي النهير كهفان كبيران يقيم فيهما المسافرون ، فيقصدهم الاهلون بالطعام لهم والعلف لدوابهم . ان جباة الرسوم يأتون من قلعة على نحو من ثلاثة فراسخ من هذه الكهوف ، فيتقاضون قرشين ونصف القرش على حمل كل حصان أو بغل ، ويفتشون في الخرجة ليروا ما اذا كان فيها سلع تجارية . وعند منتصف الطريق من سفر هذا اليوم ، نمر بمدينة خالية خاوية قد هجرها

أهلها . وعلى مسيرة ساعة منها قبور من الصخر ، يعلو وسطها صليب فيه كتابة أرمنية .

وفي اليوم الثالث والعشرين ، تمادى بنا السير إحدى عشرة ساعة ، فنزلنا في دادا كردين (Dadacardin) ، ويبدو انها كانت مدينة كبيرة ، ولكنها آلت الى الخراب النهائي ، ولم يبق منها شيء غير قنطرة طويلة من الحجر غاية في حسن البناء ، يجري من تحتها نهر يتسع كثيراً حين الفيضان . وليس لأبناء تلك البقعة مأوى غير تجاويف الصخور . وهم مع ذلك يبيعون للمسافرين الدجاج والزبدة والجبن وغير ذلك من الطعام بأبخس الأثمان .

وفي اليوم الرابع والعشرين ، سرنا تسع ساعات ، ونزلنا في قره (Cara) ، وهي قرية مبنية فوق تل . نزلت القافلة في الخان ، أما الراهبان الكبوشيان وأنا ، فقد نزلنا في دار نصراني ، وقد أخذنا هذا الى الكنيسة فرأينا الورتبيد أو مطران ماردين . وكانت الكنيسة حقيرة فقيرة .

وفي هذه القرية ، بركة أحيطت جوانبها بالصخر البديع الذي نقل من الكنائس والمقابر النصرانية في تلك الأنحاء . ومن بينها صخرة كبيرة جداً فيها شاهد بالحروف اللاتينية الكبيرة ، علمنا من قراءتها انها شاهد قبر سيد من الرمنديين ، كان ضابطاً للمشاة ،

وقد ذكر لنا الورتبيد (المطران) ان الاقاصيص والحكايات الارمنية، تروي ان هذا الفرنسي مكث مدة طويلة في هذه البلاد حين كان النصارى أسياد سورية. ان الارض هناك سهل فسيح خصيب طوله نحو عشرين فرسخاً، بوسعها ان تجعل من سكنتها أغنياء، لولا غشم الترك وغارات الاعراب عليهم مما أضعف ثروتهم وأدناها من حافة الفقر.

وفي اليوم الخامس والعشرين، بعد ان سرنا ثماني ساعات، حططنا الرحال في قرية يقال لها قوش حصار (Cousasar) ليس فيها خان. وكان هناك فيما سبق ثلاثة ديارات كبيرة بين الواحد والآخر ربع فرسخ. ولكن الترك خربوا اثنين منها عدا أبراج الكنائس التابعة لها. أما الثالث الذي لايزال قائماً بكماله، وهو من أجمل المباني، فقد اتخذ مسجداً، واتخذوا من الصوامع دكاكين لا تزال تتوسطها عين ماء.

وفي اليوم السابع والعشرين، بقينا في قوش حصار، اذ انها المكان الذي يدفع فيه كمرك ديار بكر التي لاتبعد عنها أكثر من يومين. والرسم يبلغ القرشين والربع لكل حمل من السلع التجارية.

ومدينة ماردين لا تبعد عن قوش حصار أكثر من فرسخين.

وهي بليدة قائمة فوق جبل، ذات أسوار منيعة، وينبوع

يستمد ماءه من القلعة القائمة في الجانب الشرقي ، في موضع عال يشرف على المدينة . ويقيم في هذه القلعة باشا ، بامرته مائتا سباهي واربعمائة انكشاري . وفي ماردين ، ولدت السيدة معاني جوريدة (Maani Giorida) الزوجة الاولى لپترو دلاّ فاله (Pietro della Valle) الرحالة الذائع الصيت (١)

وقوش حصار ، قرية كبيرة معظم سكانها من نصارى الارمن والنساطرة . ويصلي الارمن بلغتهم الارمنية ، والنساطرة باللغة الكلدانية . وقد أطلعني النساطرة على نسختين من الكتاب المقدس في مجلد كبير باللغة الارمية ، مكتوبين على الرق . وجميع الحروف الاولى من الفقرات مزوقة بالذهب واللازورد ، ويبدو عليهما انهما قديمتا العهد . وأخبرني أحد كهنتهم أن احداهما مضى على كتابتها ٩٣٧ سنة (٢) ، والثانية لا يقل عمرها عن ٢٧٤ سنة . ولما تنتهي الصلاة يودعونهما في صندوق يخبأ تحت الارض . وقد دفعت لهم من أجل المخطوطة القديمة ٢٠٠ قرش ، ولكنهم لم يوافقوا على بيعها لأنها من ممتلكات الكنيسة التي ليس لهم أن يتصرفوا بها .

---

(١) انظر الملحق رقم (٦) .

(٢) معنى هذا ، ان المخطوطة كتبت في سنة ٧٠٧ للميلاد ، فهي من أنفس الطرف وأقدمها . ولكن ما مصيرها اليوم ؟

وفي اليوم السابع والعشرين، بعد مسيرة تسع ساعات ، وصلنا الى قره سراي(Kara Sara)التي كانت قبلا ولاشك مدينة كبيرة . وكانت مأهولة بالنصارى إذ فيها سبع او ثماني كنائس نصف مهدمة إلا أن أبراجها أقل انهداماً . وبين الكنيسة والاخرى مسافة ما . وفي شمال احدى هذه الكنائس شرفة تفضي الى باب صغير ينزل منه بدرج ذي مائة مرقاة ؛ وعلو كل مرقاة عشر عقد . واذا دخلت الكنيسة أبصرت عقادة واسعة كبيرة ، تقوم على أعمدة . وشيد البناء بوجه ينفذ النور معه من الأسفل أكثر مما من الاعلى . ولكن الاتربة قد سدت في السنين الاخيرة عدة منافذ فيه . والمذبح الكبير منحوت في الصخر ، وعن يمينه غرفة ينفذ اليها النور من عدة نوافذ منقورة في الصخر ايضاً . وكان فوق باب الكنيسة صخرة كبيرة فيها حروف كتابة لم أستطع قراءتها . وفي الجانب الشمالي من الكنيسة نفسها صهريجان كبيران تحت الارض ، طول كل منهما أربعمائة وخمسون خطوة ، وله قوسان كبيران يسندهما عدد كبير من العمد . وهما يملآن في كل سنة بسيول الامطار المنحدرة من الجبل المجاور ، فيكون منها ما يشبه نهراً . وعلى بعد ربع فرسخ من الكنيسة تنزل من الجبل نيفاً ومائة خطوة بين الصخور ، وعلى جانبي الطريق غرف منقورة في الصخر ، وفوق كل باب صليب ، وفي كل غرفة

دكة ومنضدة وموضع صغير أشبه بسرير بطول الانسان . كل ذلك مقدود في الصخر . وفي أسفل الصخرة قاعة حول جدارها دكة ، والسقف ساذج لااقواس فيه . وفي وسطه ثقب ينفذ الى أعلى الجبل ، ولما كان النور لا يخترقها ، فيغلب على الظن أنه كان منفذاً للدخان المتصاعد أثناء الطبخ ، أو لدخول الهواء النقي كما لاحظت ذلك في كثير من قرى خليج فارس(١) . وفي أعلى أحد هذه الجبال قرية حقيرة يشترون منها مؤونتهم . وقبل أن تصل القافلة الى هاتيك الغرف الصخرية ، يستوضح التجار الراكبون في المقدمة من الرعاة عما اذا كان لهم علم بوجود لصوص فيها ، إذ كثيراً ما يختبئون هناك متربصين فريستهم .

وفي سنة ١٦٣٨ ، عندما سار السلطان مراد لحصار بغداد ، سلك هذا الطريق ، وشاهد هذه الخرائب ، فأمر بتخريب قلعة كانت على نحو فرسخين من قره سراي اتخذ منها لصوص تلك البقاع ملجأ لهم . وأمر كذلك بتنظيف الطريق الى مسيرة أربعة أيام ، وذلك بالتقاط الحجارة المتبعثرة وجمعها في أكوام تحاذي الطريق . وبنى

---

(١) بل ان هذه المنافذ مستعملة في كثير من انحاء العراق ، وتسمى عندهم « بادكير » وهي لفظة فارسية عربها الاقدمون بلفظة بادهنج . راجع شفاء الغليل للخفاجي (ص ٤١ — ٤٢ من طبعة الخانجي) .

أيضا قنطرة فوق النهر . والحق يقال ان زحف السلطان عاد بفائدة جزيلة على المسافرين في هذا الطريق .

وفي اليوم الثامن والعشرين ، سرنا ثماني ساعات ، فبلغنا نصيبين المسماة قديماً نصيبس (Nisibis) .فاذا سرت ساعتين أو ثلاثاً في هذا الطريق ، رأيت على مقربة منه نوعاً من المناسك ، وهو غرفة صغيرة محاطة بسور ، بابها شديد الانخفاض وعلى من يدخلها ان يزحف على بطنه . وقد ذهب ثلاثة او أربعة من اليهود لأداء عبادتهم في هذا المنسك لاعتقادهم انه المكان الذي دفن فيه النبي أليشع .

والارض بين قوش حصار ونصيبين سهل فسيح ، لا تجد فيه عشباً خلال الايام الأولى من السفر ، ما سوى كزبرة الثعلب . وفي اليوم التالي ، ترى الحقول مغطاة باوراق كبيرة ثخينة جذورها بصلية ، كبر الواحد كالبيضة ، كما تشاهد كثيراً من الأزهار الصفر والحمر والبنفسجية ، والسوسن بألوانه المتعددة ، وشقائق النعمان والنرجس الأصفر . ومع ذلك ، فان ما بين النهرين بوجه عام ارض قاحلة ، وما يمكن تحسينه منها بالفن والمثابرة قليل .

ونصيبين الحالية ليست إلا ظلاً لنصيبين القديمة . وهي اليوم عبارة عن قرية كبيرة يسكنها النصارى من الارمن والنساطرة . وقد

نزلت قافلتنا وراءها قليلا ، في رحبة كنيسة ملاصقة لكنيسة أرمنية . وفي اليوم الثاني ، لما سمعت الناس يرتلون ، ذهبت الى الكنيسة مع الراهبين الكبوشيين ، فرأيت مطراناً أرمنياً بتاجه وصولجانه الخشبي ، يحف به عدد من الكهنة وحشد كبير من المصلين . وفي ختام الصلاة ، تبادلنا التحيات ، ثم أنزلنا المطران الى مصلى تحت الكنيسة ، أرانا فيه ضريح القديس يعقوب مطران نصيبين (١) . وفي صحن الكنيسة رخامة ثخنها قدم وارتفاعها ست أقدام ، فوقها عدة شموع من العسل والشحم ، وهي التي ينذرها الفقراء لبلوغ مرامهم ، خاصة في مرضهم ، فانهم يعتقدون ان الحجرة كانت قاعدة تمثال لأحد القديسين شوّهه الترك ، ولهذا فهم يكرمون القاعدة كما لو كان ذلك التكريم للتمثال ذاته . وقد ترى ايضاً بعض الأحرف اللاتينية، غيران نصفها ممحو ، وأجزاء بعض الحروف الباقية مكسورة ،

---

(١) من اشهر رجال الكنيسة الكلدانية في المائة الرابعة للميلاد . ولد في نصيبين . وقد صنف بالارمية كتباً ورسائل ضاع جميعها . وصار أسقفاً على نصيبين سنة ٣٠٩ م ، وتوفي سنة ٣٣٨ م ودفن فيها ، في الكنيسة التي ابتناها بعد ذلك أحد ملوك الروم على قبره ، ولعلها الكنيسة التي بناها هو في حياته سنة ٣٢٠ م ، ثم جددت بعد موته . ان قبره الذي شاهده تافرنييه في هذه الكنيسة قبل ثلثمائة سنة ، مازالت آثاره تشاهد الى اليوم .

ولهذا لم أستطع ان أعرف لمن هذا التمثال . وعلى بعد نصف فرسخ من نصيبين نهر عليه قنطرة من الحجر ، وفي الطريق الى هذا النهر عدة قطع من جدار ، مع قوس ، وهذا حملني على الافتراض بان المدينة كانت تمتد فيما مضى حتى النهر .

وعلى ضعفي رمية بندقية من النهر ، صخرة نصفها مطمور ، عليها كتابة لاتينية يؤخذ منها انها شاهد قبر قائد فرنسي في الجيش . ولكنني لم أتمكن من قراءة اسمه الذي ضاعت بعض معالمه بمرور الزمن .

وفي نصيبين ، تؤدي الرسوم كسائر الأمكنة ، أي ان تدفع قرشين ونصف القرش على حمل البغل أو الحصان . وقد مكثنا في هذه المدينة ثلاثة أيام بلياليها ، لنتزود بالطعام الذي يكفينا حتى الموصل التي تبعد مسيرة خمسة أيام عن نصيبين ، لأن المنطقة بين هاتين المدينتين مقفرة خالية من السكان ، ولا يوجد الماء إلا في موطنين ، وهو ليس بالجيد لأن الرعاة يترددون اليهما بقطعانهم .

وفي اول نيسان (سنة ١٦٤٤ م) غادرنا نصيبين ، وبعد مسيرة احدى عشرة ساعة ، حططنا الرحال عند نهر ، فأتانا الرعاة بدجاج للبيع .

وفي اليوم الثاني منه ، سرنا عشر ساعات ، ثم نزلنا قرية

حقيرة لم نجد فيها ما نأكل .

وفي اليوم الثالث منه ، تمادى بنا السير ثلاث عشرة ساعة ، ونزلنا عند ينبوع صغير نزر الماء لم يكد يكفي لخيلنا .

وفي اليوم الرابع منه ، انتهينا بعد مسيرة عشر ساعات ، الى ضفة نهير بتنا عندها . وبالقرب منها بقايا قنطرة [١] وحصن .

وفي اليوم الخامس منه ، بعد مسيرة لاحدى عشرة ساعة بلغنا الموصل ، التي لا تبعد عن نينوى القديمة إلا يسيراً .

والموصل ، مدينة تبدو للمرء من خارجها فخمة المنظر . أسوارها [٢] حجرية ، بينما هي في داخلها تكاد تكون برمتها خربة . وليس فيها سوى سوقين معقودتين ، وقلعة [٣] صغيرة مطلة على دجلة يقيم فيها الباشا [٤] . وبوجيز الكلام ، ليس في الموصل ما يستحق المشاهدة والالتفات [٥] .

وليس لهذه البقعة من شأن إلا كونها ملتقى مهم للتجار ،

---

(١) انظر الملحق رقم (٧)

(٢) انظر الملحق رقم (٨) في الكلام على الموصل .

(٣) لا أثر لهذه القلعة اليوم ، وإنما يعرف موقعها فقد كانت تقوم عند « باب القلعة » المطل على دجلة ، في أعلى الجسر الحديدي الحالي .

(٤) كان يسوس الموصل في العهد العثماني « باشا » .

(٥) انظر الملحق رقم (٨)

خاصة تجار العرب والكرد الذين يقطنون بلاد أشور القديمة ، المسماة اليوم بكردستان ، التي يكثر فيها العفص الرائج التجارة . وفي الموصل أربع فرق نصرانية ، وهي : الروم ، والأرمن ، والنساطرة ، والموارنة (١) . وللكبوشيين مقر جميل على دجلة (٢) ، ولكن الباشا غرمهم لأنهم حاولوا توسيعه قليلا فاجبروا على تركه وهجره . ويحكم المدينة باشا ، بامرته جماعة من الانكشارية والسپاهية يبلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل .

وليس في الموصل غير خانين حقيرين ، كانا مكتظين بالمسافرين حين وصولنا اليها . فطلبت أن تنصب خيمتي في الميدان ، أي في السوق (٣) الكبيرة .

ويجدر بنا ان نتكلم قليلا على مابين نهري دجلة والفرات من

---

(١) لا نرى المؤلف الا واهماً في ذكره هذه الفرق النصرانية . فلم تعرف الموصل في يوم من أيامها الماضيات بكونها موطناً للروم ولا للموارنة . بل ان الفرقتين السائدتين في زمنه هناك كانتا « النساطرة » و « اليعاقبة » . أما الارمن فلم يكن منهم فيها إلا عدد ضئيل لا يستحق الذكر .

(٢) قدم الرهبان الكبوشيون الى الموصل سنة ١٦٣٦ وغادروها نهائياً بعد سنة ١٦٦٧ بمدة وجيزة .

(٣) مازالت « محلة الميدان » و « سوق الميدان » معروفتين مأهولتين في الموصل . وهذه السوق تمتد بموازاة دجلة ، من مشرعة شط القلعة الى الجسر الحديدي الجديد ، وبينها وبين النهر نحو مائتي متر .

تباين في مجراهما ومياههما . فقد لاحظت ان ماء الفرات يبدو محمراً قليلا ، وان تياره ليس سريعاً كتيار دجلة الذي يظهر مائلا الى البياض كنهر اللوار (١) . أما عن مجراهما فالفرات أطول من دجلة . والآن دعنا نقطع دجلة فوق جسر من القوارب (٢) لمشاهدة الخرائب الكئيبة لمدينة نينوى التي ملأت العالم ضجيجاً ، وليس في مظهرها الآن ما يدل على سابق مجدها .

شيدت نينوى على الضفة اليسرى لدجلة ، أي في الضفة الاشوريه . وهي الآن ليست إلا أكواماً من التراب تمتد نحو فرسخ بامتداد النهر . ويرى فيها عدد من الأقبية والمغاور غير المأهولة (٣) . ويصعب على الانسان أن يعلم ما اذا كانت هذه بعينها المساكن القديمة

---

(١) اللوار من انهار فرنسة .

(٢) كان للموصل منذ أقدم عصورها الى يومنا هذا ، جسر يصل ما بينها وبين شاطيء دجلة الايسر وهو جسر خشبي من القوارب ، يجدد كلما ناله البلى . ولكن هذا الجسر الخشبي الساذج ، استعيض عنه ، سنة ١٩٣٣ بجسر حديدي مكين راسخ الدعائم .

(٣) لم نفهم مراد المؤلف بقوله « الاقبية والمغاور » . فهل يدل ذلك حفريات وتنقيبات في نينوى منذ ذلك العهد ؟ مع ان المعروف بين علماء الآثار ، ان الحفريات في نينوى لم تبدأ الا في سنة ١٨٤٠ م وان معظمها تم بشق الانفاق في باطن التل لاستخراج الآثار منه ، ولا تزال معالم هذه الانفاق تشاهد وكأنها أقبية ومغاور .

في المدينة ، أم كانت هنالك بيوت مشيدة فوقها في الأزمنة الخالية . لأن معظم البيوت في البلاد التركية تشبه السراديب ، او لا تتألف إلا من طبقة واحدة عالية . وعلى نصف فرسخ من دجلة تل تشتت على سطحه بيوت وفي قمته مسجد يذهب أهل تلك البقعة الى أنه الموطن الذي دفن فيه يونس (١) (يونان) ، وهذا المسجد جليل المكانة ولا يباح لنصراني ان يدخله إلا بوجه خصوصي ، فضلا عن دفع نقود في سبيل ذلك . وبالوسيلة ذاتها أمكنني ، مع اثنين من الرهبان الكبوشيين ، الدخول فيه ، ولكننا أجبرنا على خلع نعالنا قبل السماح لنا بالدخول . وفي وسط الجامع ضريح مغطى بسجادة فارسية منسوجة من الحرير والفضة ، وفي كل ركن من الضريح شمعدان نحاسي كبير فيه شمعة من شمع النحل ، هذا الى جملة من القناديل وبيض النعام مدلاة من السقف . ووجدنا جمعاً كبيراً من المسلمين خارج المسجد ، وفي داخله رأينا درويشين يتلوان القرآن .

وعلى رمية بندقية من الموصل ، الى شمالها الشرقي ، أطلال دير كبير متهدم ، يحيط به سور عال ما زال معظمه قائماً (٢) .

لقد مكثنا في الموصل عشرة أيام ، وبعد ان تزودنا منها بكل ما نحتاج اليه لبقية سفرنا ، غادرناها قاصدين أصفهان .

---

(١) انظر الملحق رقم (٩)

(٢) انظر الملحق رقم (١٠)

الفصل الخامس (من الكتاب الثاني من الرحلة)

تتمة الكلام على الطريق من نينوى الى أصفهان

بعد ان عبرنا دجلة ، نزلنا في مكان على مسيرة ثلاثة أرباع من نينوى منتظرين تجاراً أزمعوا على السفر مع قافلتنا . ولم نسلك الطريق المعتاد الى بلاد فارس ، بل سرنا في طريق يقل فيه دفع الرسوم ،ذلك الى كونه أقصر مسافه . وتقطع القافلة ما بين حلب واصفهان بثمانية وخمسين يوماً . اننا من ضفاف دجلة حتى المكان الذي نزلنا فيه مساء ذلك اليوم ، لم نمر بغير خرائب متصلة ، مما حملني على الاعتقاد انها البقعة التي كانت تقوم فيها نينوى القديمة .

وقد مكثنا يومين قرب المسجد (١) . والذي يتناقله المسلمون ، ان يونس دفن فيه . لقد اخترنا رجلا كردياً أي اشورياً (٢) لينزعم قافلتنا (أي يصير كروان باشي) . ومع انه يشك في أمانته فقد كان اختيارنا له ضرباً من السياسة ، لانه كان علينا اجتياز بلاد اشور القديمة التي تسمى الآن كردستان ، وهذه بقعة يتكلم أهلها لغة خاصة بهم . وفي اليومين الاولين من السفر ، عبرنا جدولين يأتيان من

---

(١) يريد به مسجد النبي يونس ، وقد مر ذكره .

(٢) يريد به كرديا ساكناً بلاد اشور . وقد سبق للمؤلف في الفصل الماضي ان سمى كردستان بلاد اشور .

الجبال ويصبان في دجلة . وكان اول سفرنا في بسيط من الارض بموازاة ضفة جدول . وفي مساء اليوم الثاني نزلنا عند نهر كبير ينحدر من الجبال الشمالية ويجري جنوباً فيصب في دجلة ، ويسمى بهرز[١] (Bohrus) ، وتياره سريع عنيف ، وهو زاخر بالسمك وخصوصاً سمك سليمان . وقد ظلت القافلة في عبورها هذا النهر يومين لعدم تيسر القوارب هناك . فكان على الناس ان يربطوا أعمدة خشبية طويلة ، الواحد فوق الآخر ، يسميها الأهلون هناك « الكلك » ، وهم يصنعونه بشكل مربع ، ويضعون تحته نحو مائة جراب منفوخ بالهواء لتجعل الكلك يطفو على وجه الماء دون ان يلامس خشبه . وعلى التجار ان يحتاطوا بوضع لبابيد ثخينة فوق الكلك لئلا يتسرب الماء اليهم وتتبلل أحمالهم .وفي زوايا الكلك الأربع ، أربع خشبات تقوم مقام المجاذيف ، ولكن فعلها ضئيل بازاء قوة التيار . ولهذا ، ينبغي سحب الكلك ضد التيار الى مسافة أربعمائة أو خمسمائة خطوة ، ومن ثمة يجذف مع التيار حتى يبلغ المكان الذي يراد إنزال الأحمال فيه في الجانب الآخر . وبعد تفريغ الأحمال ، على الملاحين ان يرفعوا الكلك من الماء ، ويفكوا الجربان ويحملوها على بغال معدة لهذا الغرض . ان أصحاب الخيل والبغال

---

(١) انظر الملحق رقم (١١)

والحمير هناك، سواء أكانت للحمل أم للركوب؛ حالما يرون قافلة قادمة، يهرعون بها الى ضفة النهر؛ وليس عليهم الا وزرة من قماش اومن جلد المعز، يسترون بها عوراتهم، أما ثيابهم فينزعونها ويلفونها على رؤوسهم كأنها العمامة. ويربط كل منهم تحت بطنه جراباًمنفوخاً. فيتقدم إثنان أو ثلاثة من أمهرهم راكبين أحسن الخيول الملجمة، فينزلون في الماء ويتبعهم البقية سباحة، سائقين خيلهم أمامهم. وقد قبض كل منهم ذيل دابة باحدى يديه وبالأخرى يسوقها. فان وجدوا حصاناً أوحماراً ضعيفاً، ربطوا تحت بطنه جراباً منفوخاً عوناً له. فاذا أدركنا هذه المصاعب، اتضح حين ذاك ان مايستغرقه عبور قافلة من خمسمائة أو ستمائة دابة لا يقل عما ذكرنا.

وبهذا الوجه عبرت القافلة، ولكنها سارت في اليومين او الثلاثة الأولى من سفرها في طريق رديء جداً، لأن الخيل في اليوم الاول من السفر كانت تسير في مياه تبلغ ركبها دون ما انقطاع وفي اليوم الثاني وشطر من الثالث كانت تسير في قفار موحشة لم نجد فيها لخيلنا علفاً ما، عدا عن أحطاب قليلة لطبخ رزنا. وبعد اجتيازنا هذا الطريق الرديء بلغنا نهراً يقال له الزاب الكبير (١) (Great Zarbe)

---

(١) انظر الملحق رقم (١١)

فعبرناه فوق قنطرة حجرية (١) تتألف من تسعة أقواس . ويروي الأهلون ان هذه القنطرة أقامها الاسكندر الكبير عند مسيره لمناجزة دارا . وعلى قيد ربع فرسخ من جنوب شرقي القنطرة ، يلتقي نهيران يصبان في دجلة وبعد اجتيازنا القنطرة ، بلغنا بلدة يسمونها شهرزور (Sherazoul) وهي مبنية على نشز من الارض ، فيها ثلاثة متاريس ، ويقيم فيها « باشا » لا مندوحة للقافلة أن ترشيه بهدية ولو صغيرة ، وذلك كي يسمح لها بالمرور من هناك . ونزلنا عند ضفاف نهر ولبثنا هناك يومين . ثم سرنا يوماً في جبال جرد لا ماء فيها . على اننا في اليوم الثاني انتهينا الى سهل مبهج تكثر فيه الأشجار المثمرة ، وما هذا الا سهل اربل الذي تغلب فيه الاسكندر على دارا (٢) ، ويبلغ طوله خمسة عشر فرسخاً ، وتسقيه جداول عديدة . وفي وسط الجبل تل صغير محيطه نحو نصف فرسخ كسته الطبيعة بأجود أشجار البلوط التي لم ير مثلها . وفوق قمته خرائب حصن تدل على انه كان بناء عظيماً . ويروي أهل تلك البقعة

---

(١) لعل تافرنييه يريد بها ، قنطرة اسكي كلك ، التي هدمت ، وأقيم بجانبها في السنوات الاخيرة جسر حديدي ثابت .

(٢) جرت الموقعة بين الاسكندر ودارا في بقعة كوكاميلا قرب اربل ، سنة ٣٣١ قبل الميلاد ، وكان النصر فيها للاسكندر . وتعد هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ العراق القديم .

ان دارا مكث في هذا الحصن اثناء اشتباك رجاله بالمعركة مع الاسكندر . وعلى ثلاثة فراسخ من هذا الحصن ، قرب جبل عظيم يتجه شمالا ، بقايا حصن آخر وعدة بيوت ، يتناقل الاهلون فيما بينهم ان دارا حمى بعض نسائه فيهـا لما خسر المعركة . ويقوم هذا الحصن فوق بقعة جميلة المنظر . وفي حضيض الجبل عين ماء ، تنساب مسيرة ربع فرسخ ، ثم تصب في نهر صالح لسير القوارب الكبيرة . وهذا النهر يتمعج بين الجبال متجهاً جنوباً ، بحيث انك بعد مسيرة يومين من التل تعبر هذا النهر ثانية قرب بلدة يقال لها شهرزور ، فوق قنطرة من الحجر ذات تسعة أقواس ، وهي التي أمر الشاه عباس الكبير بهدم ثلاثة من أقواسها بعد استيلائه على بغداد .

وشهرزور بلدة تختلف في بنائها عن أي بلد في تلك الأنحاء ، لجميعها منحوت في الصخر بما يبلغ امتداده ربع فرسخ ، ولهذا عليك ان ترتقي بيوتها بمرقاة تتألف من خمس عشرة الى عشرين درجة ، وأحياناً أقل ، بنسبة ارتفاع المكان الذي تقصده . وليس لمداخل بيوتها أبواب ، بل لها أحجار مستديرة تشبه حجر الرحى ، يدحرجونها حين الدخول أو الخروج . وحافات الحائط نقرت بوجه يستوعب هذا الحجر . كما هي الحال في الملبة وغطائها ،

اذ يصبح الحجر باستواء واجهة الجبل عند وضعه على الباب .

وتبدو أعالي بيوتهم كالروازين في الجبال ، وقد اتخذ الاهلون مغاور لحفظ ماشيتهم فيها ، ومن ذلك نحكم انها نقرت لتحمي السكان من عرب مابين النهرين وبدوهم .

انتهينا الى شهرزور في ليلة عيد الفصح ، ومكثنا هناك ثلاثة أيام طلباً للراحة بعد صوم تمسكنا به . وقد رأيت هنا ينابيع يخرج منها الماء بفقاقيع كبيرة . وبعد أن مزجت هذا الماء بكأسين من الخمر وشربته وجدت له خاصية الاسهال، كما انه ذو مذاق معدني . ان ماء هذه العيون يغلي قرب ضفة نهر يسمى التون صو أو نهر الذهب الذي يصب في دجلة ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام من مصبه يصل المرء الى بغداد .

وفي اليوم التالي ، نزلنا بلدة حقيرة على الحدود بين تركية وايران (١)

وفي اليوم الذي يليه ، وهو اليوم الخامس بعد مغادرتنا نينوى مررنا بعدة مناقع ومياه حارة تفصل بين الانبراطوريتين . وهكذا ، دخلنا في بلاد فارس ، وصادفنا جبلا شامخاً تغطيه أشجار البلوط التي تحمل العفص . ولعلو هذا الجبل الشاهق، استغرقت القافلة بضع ساعات

---

(١) يقصد الحدود بين ايران والعراق . لان العراق كان حينذاك في ضمن الانبراطورية العثمانية ، ويسميها الامرنج احياناً تركية .

لبلوغ قمته . ولدى صعودنا هذا الجبل ، وخاصة عند ما أدركنا قمته ، سمعنا طلقات بندقية تدوي في الفضاء ، فظننا بادىء الأمر ان أناساً يصطادون الخنزير البري او الغزال مما تكتظ به الجبال ، ولكن صوت الرصاص كان أقوى وأشد مما يستعمله الصيادون . فتأهبنا للامر . وكان من الواجب التدبر في مسيرنا لو كنا نعلم ماسيجابهنا من أمر ، إذ تذكرت أن الأهلين هناك لا يبيعون شيئاً إلا مقابل بارود او رصاص . وكان الكروان باشي قد نصحني مرة ان لا أقايضهم خشية ان يستعملوا ما يأخذونه منا ضدنا . ثم انحدرنا من الجبل الى سهل خصيب تسقيه عدة أنهر .

فالمقاطعة التي اجتزناها حتى الآن ، تؤلف القسم الأعظم من بلاد اشور القديمة .

[ملاحظة : وفي رحلة تافرنييه الرابعة الموصوفة في الفصل السادس من الكتاب الثاني ، التي بدأ بها في ١٨ حزيران سنة ١٦٥١ م ، بخروجه من باريس ماراً بمرسيلية ، ومنها الى سردينية ، فتونس ، فپانتيلارية ، فصقلية ، ثم مالطة ، فكريت ، ومنها اجتاز بحر المورة ، فوصل الى قبرس ، ومنها الى ساحل سورية في خليج انطاكية ، فالاسكندرونة ، ومنها الى حلب] قال بعد ذلك : —

وفي الثالث عشر من كانون الاول (١٦٥١ م) توجهنا نحو نينوى بطريق يختلف قليلا عما سلكته في رحلتي الثالثة من باريس ووصفته في وقته . وصلنا في اليوم الثاني من شباط (١٦٥٢ م) مدينة الموصل او نينوى ، فمكثنا فيها الى اليوم الخامس عشر منه ، وذلك الى ان تهيأت الأكلاك ، وهي سفن ذلك البلد . وكان في كلكنا ثلاثون مسافراً وأحمال كثيرة . فسار بنا الكلك فوق دجلة ، من الموصل الى بابل .(١)

---

(١) ان غير واحد من الرحالين الاقدمين قد خلطوا بين الموصل ونينوى كأنهما شيء واحد . كما انهم ذهبوا الى ان بغداد هي بابل ، وكل ذلك من الاوهام الظاهرة التي لا تخفى على من له اقل الوقوف على بلدان العراق .

مواصلة الطريق الذي سلكه المؤلف في رحلته الرابعة في آسية ، وخاصة سفره في دجلة من نينوى الى بابل [بغداد]

في الخامس عشر من شباط (١٦٥٢ م) ، تحركنا من الموصل ، وبعد ان جرى الكلك بنا ست ساعات ، رسونا قرب حمام حارة المياه ، على بعد رمية بندقية من دجلة ، وكانت مزدحمة بالمملولين الذين أموها للاستشفاء من كل حدب وصوب (١) . وقد أقمنا على حراسة الـكلك طوال الليل ، ولكن بالرغم من تيقظنا فقد سرق الأعراب غطائين من أحد التجار وثياباً من رجل تركي كان قد نزل الى الحمام .

وفي اليوم السادس عشر منه ، بعد ان جذفنا حوالي خمس ساعات ، بلغنا سداً ضخماً (٢) ، عرضه ٢٠٠ قدم، ويشكل شلالا في النهر انحداره عشرون قامة .

ويقول العرب ان الاسكندر الكبير قد أقامه رغبة منه في تغيير مجرى النهر ، بينما يقول غيرهم ان دارا هو الذي أمر ببنائه

(١) انظر الملحق رقم ١٢

(٢) ورد في حاشية خطية في كتاب الرحلة ، تعليقاً على هذا السد : انه بني من حجارة كبيرة تصلبت بمرور الايام فأصبحت كالصخر .

لصد مرور المقدونيين الآتين بطريق الماء (١) . ومهما يكن من أمر هذا السد ، فقد اضطررنا الى النزول براً مع أحمالنا ، فحملناها على الدواب التي جاءنا بها العرب .

ان عبور هذا السد لأمر جدير بالمشاهدة ، لأنه من العجيب ان ترى الكلك يهوي بغتة من علو ١٢٠ قدماً ، وهو محافظ على موازنة جريانه فوق الماء بواسطة الجربان . ويربط ملاحو الكلك أنفسهم ومجاذيفهم ربطاً وثيقاً بروابط مقوسة بهيئة نصف دائرة ، ليحموا انفسهم من قوة الماء . وفي الحقيقة ، ان هذا السد هو الذي يجعل من دجلة نهراً غير صالح للملاحة .

ثم جاء الكلك الى المكان الذي كنا ننتظره فيه ، فوسقنا أحمالنا ، ورسا حيث كنا من ضفة النهر . ومن عادة الاعراب انهم اذا شعروا بنوم التجار ، يقطعون حبال الكلك ويتركونه يبتعد عن حافة النهر ، فيتبعونه سباحة ، ويسرقون منه ما راق لهم .

وفي اليوم السابع عشر ، بعد جذف ثلاث ساعات ، التقينا بنهر الزاب الذي يصب في دجلة من جهة بلاد كلدية . وعلى نصف فرسخ من النهر حصن (٢) من الآجر على تل صغير ، مهجور

---

(١) راجع الملحق رقم ١٣

(٢) لعل الحصن المشار اليه ، من بقايا « السن » وهي مدينة دائرة كانت على مصب الزاب الاسفل .

فأدى ذلك الى خرابه . مكثنا فوق الماء في هذا اليوم اثنتي عشرة ساعة ، ثم رسونا في حويجة ، وأوقدنا ناراً عظيمة ، وأطلقنا بنادقنا غير مرة لترويع الاسود (١) .

وفي اليوم الثامن عشر ، لبثنا في الكلك ثماني عشرة ساعة ، ورسونا على ضفة النهر ، عند الجهة الاشورية . وفي المساء جلب لنا الاعراب لبناً وزبدة ، لقد جاءوا الينا سابحين من ضفة النهر الاخرى وتحت بطونهم جربان وأخرى فوق رؤوسهم فيها ما جلبوه لنا ، وهم لا يتقاضون عنه نقوداً بل تبغاً (٢) او كعكاً او فلفلاً .

وفي اليوم التاسع عشر، بعد ان جرى بنا الكلك أربع ساعات ، التقينا بنهر يقال له التون صو (٣) ، اي نهر الذهب ، وهو الذي ينبع من جبال ماذي ، وقد سرت بهذا النهر ثلاثة أيام في إيابي من تبريز

---

(١) كان الاسد ، في الازمنة القديمة ، كثير الوجود في جهات العراق . ويؤخذ من الآثار المستخرجة من خرائب المدن الاشورية ، أن ملوك اشور كانوا من أمهر صيادي الاسود واشجعهم . والظاهر ان الاسود كانت في زمن تافرنييه ترتاد اراضي العراق . على انها اخذت تقل بمر السنين حتى اننا لا نسمع بوجودها اليوم الا في النادر جداً .

(٢) في هذا اشارة الى استعمال التبغ في العراق قبل ثلثمائة سنة ، وهو خبر طريف .

(٣) يريد به الزاب الصغير .

الى حلب ،عابراً دجلة عند ميسيا[١] (Mesia) . ولماء هذا النهر مذاق عذب ، وهو يصب في دجلة عند الجهة الاشورية . وعلى امتداد دجلة ، من الجهة ذاتها ، عدد كبير من عيون القار [٢] وغيرها من المياه الحارة ذات الرائحة الكبريتية . وفي ذلك اليوم لم نر غير اعراب واكراد يسيرون بمحاذاة ضفتي النهر : الكرد في جهة ما بين النهرين ، والعرب في الجهة الاشورية . لقد كانوا في حرب ، وكان كل من الفريقين يسير بنظام تام : الشبان يحملون القسي والنشاشيب وبعض البنادق وعدة حراب نصفية ، ومن ورائهم نساؤهم وفتياتهم واطفالهم ، مع أبقارهم واغنامهم وابلهم ، ويسير في المؤخرة المسنون . وكان كل من الاكراد والاعراب يرسلون فرسانهم للاستطلاع على المرتفعات ، فان رأى أحد الطرفين المجال مساعداً للهجوم ، سبحت جموعه في الماء وهاجموا أعداءهم . أما نحن ، فلما كنا لا نثق بمثل هؤلاء الناس ، جذفنا مدة تسع عشرة ساعة لنتجنبهم .

وفي اليوم العشرين ، بقينا لاحدى عشرة ساعة فوق دجلة ، ورسونا عند بلدة يقال لها تكريت ، في جهة ما بين النهرين . في هذه البلدة قلعة نصف خربة ، ومع ذلك لا تزال ترى فيها بعض غرف أنيقة . ومن الجهة الشمالية والشرقية يقوم النهر مقام خندق ، أما من

---

(١) لا نعرف شيئاً عن هذا الموقع

(٢) راجع الملحق رقم ١٤

جهتيها الغربية والجنوبية فيحدق بهـا خندق اصطناعي مرصوف بالحجارة . . ويقول العرب انها كانت قديماً أقوى موضع في كل ما بين النهرين . ويشرف عليها تلان غير بعيدين عنها . وكان يسكن النصارى [١] على مسافة نصف فرسخ من المدينة حيث ان خرائب كنيسة وقسماً من برجها لا تزال تشاهد ، ويظهر من بقاياها انها كانت بناء عظيما فيما سبق .

وفي اليوم الحادي والعشرين ، بعد ان جذفنا ثلاث ساعات ، صادفنا بلدة على الجهة الاشورية ، تسمى إمام دور (Amet - el-tour) وهي باسم شخص له مرقد فيها ، ويعده الناس هناك ولياً [٢] وهو موضع تكريمهم ، يقصده كثير من أهل الدعاء والنذور . ومكثنا في ذلك اليوم اثنتي عشرة ساعة في الماء ثم رسونا عند ضفة النهر .

وفي اليوم الثاني والعشرين ، بعد ان بقينا في الماء ساعتين ،

---

(١) للنصرانية في تكريت تاريخ حافل ، وما زال بين آثارها بقايا كنائس وديارات . الا أننا لا نعلم بوجه التحقيق متى اندثرت النصرانية من هذه المدينة . وتقول دائرة المعارف الاسلامية (٥ : ٤٣٦ من الترجمة العربية ، مادة تكريت) ان تافرنييه كان آخر من ذكر خبر النصارى بهذه المدينة .

(٢) راجع الملحق رقم ١٥

التقينا بجدول يأخذ ماءه من دجلة لسقي الأراضي هناك ، ويمتد الى قرب قبالة بغداد ، وهناك يصب في دجلة مرة ثانية . ومن هناك نزلنا الى البر في الجهة الكلدانية ، لأنه كان برفقتنا مسلمون أحبوا ان يتبركوا بزيارة مكان يقال له سامراء (Samatra) ، وفيها جامع لا يبعد أكثر من نصف فرسخ من النهر ، يؤمه كثير من المسلمين لتقديم فروض العبادة ، خاصة الهنود والتتر الذين يعتقدون ان أربعين نبياً من أنبيائهم مدفونون هناك . ولما علموا اننا نصارى لم يسمحوا لنا بان نطأ ارضه . وعلى خمسمائة خطوة من الجامع برج[١] مشيد بمهارة فائقة ، له مرقاتان من خارجه تدوران حوله دوران الحلزون . واحدى هاتين المرقاتين أعمق في بناية البرج من الاخرى . وكان بامكاني ان أمعن النظر فيه أكثر من هذا لو سمح لي بالدنو منه الى مسافة قريبة . والذي لاحظته ، انه مشيد بالآجر ، ويبدو عليه مسحة القدم . وعلى نصف فرسخ منه ، تبدو ثلاثة أبواب كبيرة كأنها أبواب قصر عظيم[٢] . وفي الحقيقة لا يبعد أن في هذه الانحاء كانت مدينة عظيمة ، لأن على مسافة ثلاثة فراسخ

---

(١) راجع الملحق رقم ١٦

(٢) راجع الملحق رقم ١٦

على طول النهر لايرى شيء سوى الخرائب (١) . لقد بقينا اثنتي عشرة ساعة هذا اليوم فوق الماء ، ورسونا عند ضفة دجلة حسب العادة .

وفي اليوم الثالث والعشرين ، مكثنا عشرين ساعة في الماء ، ولم نشاهد طول اليوم على جانبي النهر شيئاً غير أكواخ حقيرة من سعف النخل ، يسكنها بعض الفقراء الذين يديرون ناعوراً لسقي الأراضي المجاورة . والتقينا في ذلك اليوم ايضاً بنهر يدعى العظيم (Odoine) الذي يصب في دجلة في جانب كلدية القديمة .

وفي اليوم الرابع والعشرين ، لبثنا اثنتين وعشرين ساعة في الماء لم نغادر في أثنائها الكلك ، والسبب في ذلك ان التجار أخرجوا من الكلك كل ما عندهم من نقود واحسن ما لديهم من بضاعة وسلموها الى أبناء تلك البقعة الذين يحملونها بامانة عظيمة الى بغداد حيث يريد التجار بيع سلعهم . ويعمد التجار الى ذلك تهرباً من دفع خمسة بالمائة في المدينة [بغداد] . ولقد أمنت أنا أيضاً عندهم عدة أشياء قدموا لي بها حساباً دقيقاً كما فعلوا مع الآخرين ورضوا لقاء أتعابهم بشيء زهيد .

وفي اليوم الخامس والعشرين ، انتهينا نحو الساعة الرابعة

---

(١) راجع الملحق رقم ١٦

صباحاً ، الى مدينة بغداد التي تعرف عادة باسم بابل . تفتح أبواب المدينة في الساعة السادسة ، فيجيء رجال الكمرك ايدونوا ثبتاً بالسلع ويفتشوا التجار أنفسهم ، فان لم يجدوا معهم شيئاً ، سمحوا لهم بدخول المدينة . اما اذا كان عليهم ما يجب تأديته من رسوم ، فانهم يأخذونهم الى دار الكمرك ويدونون ما معهم من سلع ويدعونهم يذهبون . ويحمل الى الكمرك أيضاً جميع ما في الكلك من السلع التي يذهب التجار لتسلمها من هناك في خلال يومين أو ثلاثة ايام بعد دفع ماعليها من رسوم الكمرك . وهذا كله يتم بنظام تام ، دون ما جلبة ولا ضوضاء .

ومع ان مدينة بغداد تعرف عادة باسم بابل ، فانها تبعد مسافة كبيرة عن بابل القديمة (١) وسأتكلم فيما يلي على بغداد كما هي اليوم :

تقع بغداد على نهر دجلة ، في ضفة جانب فارس (٢)، ويفصلها هذا النهر عما بين النهرين . وهي مبنية على خط عرض ١٥َ ٣٣ْ . ويروي المؤرخون العرب ، ان أحد الخلفاء المسمى بالمنصور ، شيدها سنة ١٤٥ للهجرة ، الموافقة لسنة ٧٦٢ للميلاد او حواليها . وهم يسمونها

---

(١) تبعد بابل عن بغداد ٥٤ ميلا .

(٢) يريد المؤلف بضفة جانب فارس ، ضفة دجلة الشرقية ، اي ضفة النهر اليسرى . ولكن الصواب ان بغداد تقع على كلتا ضفتي دجلة ، اليمنى واليسرى .

ايضاً دار السلام (Dar - al - Sani) . ويذهب بعضهم الى انها اشتقت اسمها من دير كان في مرج حيث تقوم المدينة الآن . ولذلك سميت بغداد ، أي بستان موقوفة أو موهوبة(١) . وعندما كان بعض الفعلة يحفرون في أسس خان ، قبل نحو من اربعين سنة ، وجدوا جثة مسجاة كما يسجى الأسقف ، وبجانبه الكافور والطيب . وفي المكان نفسه ظهرت عدة قلال من بيوت دينية ، مما يترجح معه القول ان الموضع الذي بنيت فيه بغداد ، كان قديماً ديراً كبيراً وبيوتاً عديدة يسكنها النصارى . ويبلغ طول المدينة نحواً من ١٥٠٠ خطوة ، وعرضها ٧٠٠ او ٨٠٠ خطوة ، ولا يتعدى محيطها ثلاثة أميال . أما سورها فمبني بالآجر ، ويقطع هذا السور في بعض النقاط أبراج كبيرة كالمتاريس نصب فوق جميعها زهاء ستين مدفعاً ، ولكن ليس بين هذه المدافع ما يحمل اكثر من خمس او ست قنابر . ويكتنف السور خندق عريض ، عمقه نحو خمس او ست قامات . وللمدينة أربعة أبواب ، ثلاثة منها في جهة البر ، وواحد مطل على النهر (٢) ، ومنه يعبر النهر على جسر ذي ثلاثة وثلاثين قارباً ، بين القارب والآخر مسافة تبلغ عرض قارب واحد . والقلعة في داخل المدينة ،

---

(١) انظر الملحق رقم ١٧

(٢) انظر الملحق رقم ١٨

بالقرب من الباب المسمى بباب المعظم (el - Maazan) ، وهو في شمالي المدينة . ويطل قسم من القلعة على النهر ، ويضمها سور بعض أقسامه مسطح . إن هذا السور مقوى بأبراج صغيرة ، أقيم فوقها نحو من مائة وخمسين مدفعاً لا عجلات لها . والخندق المحدق بسور القلعة ضيق لا يتجاوز عمقه القامتين او الثلاث . وليس على الخندق امام الباب جسر قابل للانفتاح . وفي القلعة حامية قوامها ثلثمائة انكشاري يرأسهم آغا . ويحكم المدينة باشا يكون عادة برتبة وزير ، ولمسكنه المطل على دجلة منظر بديع . وبامرته دائماً ستمائة او سبعمائة فارس . وهنالك أيضاً آغا يرأس بين الثلثمائة والاربعمائة سپاهي ، هذا الى صنف آخر من الخيالة يسمون جنكوليلر أي الشجعان ، على رأسهم اثنان من الأغوات . وفي المدينة والبلدان المجاورة لها حوالي ثلاثة آلاف من هؤلاء الرجال . ان مفاتيح ابواب المدينة وباب الجسر تودع عند آغا آخر ، بامرته مائتا انكشاري . وهنالك أيضا ستمائة من المشاة يرأسهم آغا ، ونحو ستين مدفعياً كانوا في ذلك الحين بامرة خبير يسمى السنيور ميخائيل ، الذي يعتبر تركياً وإن كان من مواليد كانذي [كريت] . لقد وقف هذا الرجل نفسه لخدمة الباب العالي حينما ذهب لحصار بغداد سنة ١٦٣٨ م . ومما يجدر ذكره ان الأتراك الذين خدمهم الحظ للاستيلاء على المدينه بوقت قصير ،

لم يكن الفضل في ذلك للثغرة التي أحدثها السنيور ميخائيل في السور فحسب ، بل ايضا الى ما أحدثه الشغب والثورة حينذاك من التأثير في المدينة . وها أنذا أدرج فيما يلي قصة فتح المدينة بايجاز :

ان الخان الذي تحمل العبء الأكبر أثناء الحصار في بادىء الأمر كان أرمني الأصل واسمه صفي قولي خان . فقد حكم المدينة مدة طويلة ، ودافع عنها مرتين ضد الجيش التركي الذي لم يتأت له الاستيلاء عليها من قبل . ولكن ملك فارس أرسل بعض محسوبيه لتسلم مهام القيادة بدلا منه ، فتسلمها منه قبل أن يعمل المدفع عمله في ثغر السور . ولما وجد الخان السالف نفسه قد استخف بالحاكم الجديد ، آثر الموت على تحمل الاهانة التي لحقت به . فدعا بخدمه وضباط الجيش وإمرأته وابنه ، وتناول بيده أمامهم ثلاثة كؤوس من السم ، وأمر زوجته ، فيما اذا كانت تحبه حقاً ، أن تبرهن على صدق حبها له بأن تشاركه الموت بطيبة خاطر . ووجه الخطاب نفسه الى ابنه . وهكذا تجرع الثلاثة كؤوس السم الذي قضى عليهم سريعاً . أما الجنود الذين كانوا يكنون له في قلوبهم حبا عميقا ، فانهم بعد أن أبصروا هذا المشهد المفجع ، ولعلمهم ان السلطان أعد العدة لهجوم عام ، لم ينقادوا لخانهم الجديد ، بل ساروا في طريق التمرد والعصيان ، وبلغ من غلوائهم في هذا الموقف ، ان رضوا بتسليم المدينة

للترك ، على ان يسمح لهم بالخروج منها بجميع سلاحهم ومؤنهم . غير ان الترك لم يحافظوا على كلمتهم ، إذ ما دخلوا المدينة حتى أشار الباشا على السلطان ان يضعف قوة الفرس ، بأن يعمل السيف في رقاب كل الجنود الذين كانوا في المدينة ، فوقعت حينذاك مذبحة ذريعة بلغت ضحاياها زهاء عشرين الف نسمة ذهبت غدراً . واستولى الترك على دير الكبوشيين ، ولكن السنيور ميخائيل رئيس المدفعية أفلح في إعادته اليهم .

أما عن الحكومة المدنية في بغداد ، فليس فيها غير قاض تناط به كل الأعمال ، حتى منصب المفتي ، ومعه دفتردار يتسلم واردات السلطان . وفي بغداد خمسة جوامع : اثنان منها مبنيان بريازة بديعة ، تزينها قباب مكسوة بالقرميد المدهون ذي الألوان المختلفة . وفيها ايضا عشرة خانات بناؤها حقير ما خلا اثنين منها ينال فيهما المسافرون قسطا من الراحة . وبالاجمال ، ان المدينة ساذجة البناء ، لا جمال فيها ، اللهم اذا استثنينا أسواقها المسقفة ، ولولا ذلك لما استطاع التجار تحمل حرارة الصيف . وترش الاسواق ثلاث أو أربع مرات في اليوم ، يرشها قوم يتقاضون أجورهم من عموم أهل السوق . وتجارة المدينة رائجة ، ولكن ليست بما كانت عليه في ايام ملك فارس . لانه عندما استولى عليها الترك ، اغتالوا كثيراً من أثرياء التجار . ومع ذلك ، فان الناس

يتوافدون عليها من كل حدب وصوب ، ولا ادري أكان ذلك للتجارة أم للعبادة ، فان شيعة علي (Haly) يعتقدون ان علياً عاش في بغداد[١]. ثم ان كل من يرغب في الحج الى مكة براً ، عليه ان يمر ببغداد ، وعلى كل حاج حينذاك ان يدفع الى باشا بغداد أربعة قروش . ومما يجدر ذكره ، ان في بغداد مذهبين اسلاميين ، هما مذهب الشيعة ومذهب السنة ، وهؤلاء يشبهون في أحوالهم سكان القسطنطينية .

اما جنائزهم ، فقد عنيت بملاحظة عاداتهم في ذلك ، فعندما يموت الزوج ، تكشف المرأة رأسها وتحل شعرها وترسله على أذنيها وتسود وجهها بسخام القدور وتصنع حركات غريبة تستثير ضحك الغرباء بدلا من دموعهم . ويحضر جميع الأقارب والاصدقاء والجيران الى دار الميت ويمكثون هناك الى ميعاد تشييع الجنازة . وفي ذلك الوقت تتزاحم النسوة بألوف الوسائل السخيفة الى اظهار حزنهن ، وذلك بلطم خدودهن ، والعويل كالمجانين . ويبدأن فجأة بالرقص على صوت نقارة كالتي يحملها أصحاب الطبول والمزامير ، وتبقى النسوة ينقرن عليها نحو ربع ساعة . ومن جاري عاداتهم في المآتم ، أن تندب إحداهن الميت ، فيجبنها الباقيات بعويلهن وولولتهن التي تسمع من بعيد . ومن العبث ان يحاول المرء مؤاساة أبناء الميت ، لأنهم

---

(١) لا نعلم من اين نقل المؤلف هذا الزعم الغريب !

يبلغون حالا يفقدون معها رشدهم . وهم مضطرون الى سلوك هذا السبيل ، والا نالهم اللوم والتقريع ، على عدم عطفهم على ذويهم الراحلين . وعندما يحمل الجثمان الى القبر ، يتقدمه رهط من الفقراء حاملين الاعلام التي تنتهي عصيها من أعلاها بأهلة ، وهم يندبون بألحان محزنة طول الطريق . ولا يباح للنساء مرافقة الجثمان ، لانه لا يخول لهن الخروج من الدار إلا في أيام الخميس ، حيث يقصدن الضريح للصلاة على الميت . ومن عاداتهم ان النساء يذهبن صباح الاربعاء الى الحمامات حيث يطين رؤوسهن وأبدانهن بالماء المعطر . وقد يخرجن أحياناً من الدار في غير هذه المناسبات ، وذلك عندما يأذن لهن أزواجهن بزيارة أقاربهن . ولكن في هذه الحالة ، عليهن بالتستر من أعلى الرأس حتى أخمص القدم ، حتى ليتعذر على ازواجهن أنفسهم تمييزهن إذا لاقوهن في الطريق . ونذكر في هذا الصدد ان النساء الفارسيات ، باستثناء الفقيرات منهن ، يفضلن المكوث كل أيام حياتهن في البيوت على الخروج بلا احصان . وهناك علامة تميز بها النساء البغايا من الحرائر ، ذلك ان البغايا يضعن اقدامهن في ركاب السرج ، بينما الحرائر يدخلن أرجلهن في جلد الركاب . والعادة الجارية بين نساء بغداد انهن يكثرن من استعمال الحلى ، إلا انهن لا يكتفين بلبس الحلى حول أعناقهن أو معاصمهن بل يعلقنها أيضاً حول وجوههن ،

ويثقبن اذانهن لوضع الأقراط فيها . والمرأة العربية الريفية تثقب ما بين منخريها لتعلق « خزامة » فارغة لتخفف من الثمن والثقل ، وبعضها في غاية الكبر حتى ليمكنك إدخال قبضة يدك فيها . وللمبالغة في تجميل أنفسهن يكتحلن . وفي البادية يكتحل الرجال كالنساء ، وقاية لعيونهم من وهج الشمس على ما يقولون .

والنصارى في بغداد ثلاث فرق : النساطرة ، ولهم كنيسة (١) . والأرمن (٢) ، واليعاقبة وليس لهم كنيسة (٣) ، بل يصلون في كنيسة الكبوشيين الذين يقيمون لهم الشعائر الدينية . وعلى نحو ربع فرسخ من المدينة بيعة للنصارى يقصدونها للتعبد ، وهي

---

(١) هذه الكنيسة ما زالت قائمة في محلة الميدان ، وتعرف بكنيسة مسكنتا وتعد من أقدم الكنائس القائمة اليوم في بغداد ، كانت فيما مضى للنساطرة ، ثم صارت بيد الارمن الارثودكس سنه ١٧٤٤م (راجع تفاصيل تاريخية عن هذه الكنيسة ، للاستاذ يعقوب سركيس . في لغة العرب ٩ (١٩٣١) ص ٥١٢ ـ ٥١٦)

(٢) للارمن اليوم في بغداد كنيستان : الاولى للكاثوليك ، وتسمى كنيسة انتقال العذراء ، وتعرف بين عوام الناس بكنيسة (الدوغة) وقد بنيت في سنة ١٨٤٤ م ، في محلة النصارى (عقد الكنائس) . والثانية للارثودكس وتسمى كنيسة الثالوث الاقدس ، وقد بنيت في سنة ١٨٥٣ م ، وهي في المحلة نفسها (عن الاب دير نرسيس صائغيان) .

(٣) لليعاقبة أيضاً كنيسة حديثة العهد ، في محلة البتاويين ، بنيت سنة ١٩٣٤ م باسم السيدة العذراء

باسم « خضر الياس » (١) . ولكي يسمح لهم بزيارتها ، يدفعون أجرة زهيدة للترك الذين بيدهم مفاتيح البيعة . وعلى مسيرة يومين من المدينة ، بيعة أخرى خربة في قرية حقيرة ، يقول النصارى ان مار شمعون ومار يهوذا استشهدا هناك ودفنا فيها . وإذا توفي نصراني ، حضر جميع النصارى الى حفلة دفنه ، ثم يعودون الى البيت ، فيجدون الطعام معداً لهم . وفي اليوم الثاني يعودون الى القبر ويصلون على المتوفى ، وفي اليوم الثالث يهيئون عشاء للغادي والرائح ، وقد يجتمع أحياناً في أثناء الدفن نحو مائة وخمسين شخصاً . ان هذه الرسوم تتكرر أيضاً في السابع والخامس عشر والثلاثين والأربعين بعد الوفاة ، وهذا دليل على احترامهم المظيم للميت الذي يصلون من أجله مراراً . لكن هذه العادة التكريمية تكون عبثاً ثقيلا على الفقراء الذين يميلون الى تقليد الأغنياء في هذا الشأن ، فيبهظون كواهلهم بالديون أحياناً ، وقد يبلغ بهم الأمر ان يضطروا الى بيع أطفالهم للترك ليفوا ديونهم .

وفي بغداد عدد من اليهود أيضا . ويأتي كثيرون غيرهم في

---

(١) ليس في بغداد اليوم كنيسة بهذا الاسم . والمعروف ان في الجانب الغربي من بغداد جامعاً يعرف بجامع خضر الياس مطل على دجلة (راجع تاريخ مساجد بغداد للآلوسي : ص ١٣٣ و ١٤٥) .

كل سنة لزيارة مرقد النبي حزقيال (١) الذي يبعد يوما ونصف يوم عن المدينة .

وبوجيز الكلام ، ان بغداد منذ استيلاء السلطان مراد عليها لم يكن عدد نفوسها باقل من خمسة عشر ألف نفس ، مما يدل على ان المدينة لم تكن مأهولة بما يتناسب وسعة رقعتها .

وعلى مسيرة يوم ونصف يوم من نقطة مابين النهرين ، وذلك في بقعة تكاد تتوسط مابين دجلة والفرات ، تقع العين على مرتفع عظيم من التراب ، يسميه الناس الى هذا اليوم « نمرود » ، يقوم في وسط سهل منبسط ، ويرى من مسافة بعيدة . ويعتقد العوام انه بقايا برج بابل ، ولكن الأقرب الى الامكان هو مايراه العرب الذين يسمونه عقرقوف (٢) (Agartouf) ، إذ يزعمون ان أميراً عربياً شيده ، وكان يضع دائماً مشعلا فوق قمته ، ليستجمع رعاياه في بقعة واحدة أيام الحرب . ويبلغ محيط هذا المرتفع عند قاعدته نحو ثلثمائة خطوة ، ولكن ليس من اليسير التكهن بما كان عليه ارتفاعه القديم ، لان أعاليه قد انهارت ولم يبق منه غير ثماني عشرة أو عشرين قامة .

---

(١) مرقد النبي حزقيال في قرية الكفل على بعد ٢٠ ميلا جنوب الحلة . ويسمى ايضاً ذا الكفل .

(٢) انظر الملحق رقم ١٩

ان هذا البرج مشيد باللبن ، ضلع كل لبنة عشر عقد (انجات) ، وثخنها ثلاث . ويقوم البناء بالوجه التالي : فوق كل صف من العيدان او القصب المسحوق المخلوط بتبن الحنطة المفروش بثخن عقدة ونصف ، سبعة سافات من هذا اللبن ، بين الساف والآخر تبن قليل . ثم يلي ذلك صف آخر من القصب وفوقه ست سافات من اللبن . ثم صف ثالث مع خمسة سافات . وتقل السافات بهذا الوجه حتى تبلغ القمة . ويلوح ان شكله الأصلي كان أقرب الى المربع منه الى المدور . وفي أعلى قسم من بقيته ثقب لا ادري أكان نافذة أم مخرجاً للماء أم ثقباً لاسقالة . وبالاختصار انه بحسب وصف موسى (١) ليس هناك ما يدل على ان هذا بقايا برج بابل القديم .

---

(١) يريد بذلك برج بابل الموصوف في التوراة ، راجع سفر التكوين (١١ : ١ ـ ٩)

خريطة بغداد نقلا عن رحلة تافرنييه بترجمتها الانكليزية

صورة مدينة بغداد

يستغرق الطواف حول بغداد زهاء ساعتين

A . رقعة المدينة .

B . القلعة .

C . باب المعظم .

D . البرج الجديد .

E . الباب الذي نصب عليه السلطان أول بطارياته المدفعية سنة ١٦٣٨ م .

F . البرج القديم .

G أحد ابواب السور [المعروف بالباب الوسطاني]

H البرج القديم .

I . المكان الذي أقام فيه السلطان مراد ثاني بطارياته المدفعية حينما ثغر السور واستولى على المدينة .

K . أحد ابواب السور [المعروف بباب الطلسم] .

L . البرج القديم

M البرج القديم .

N . قرة قابي او الباب الاسود [الباب الشرقي]

O البرج القديم .

P . صوقابي او باب الشط .

اكمال الطريق من بغداد الى البصرة

والكلام على ديانة الصابئة وهم نصارى يوحنا

في الخامس عشر من آذار ، ركبنا سفينة من بغداد الى البصرة (Balsara) فرأينا نهر دجلة أسفل بغداد ، ينشطر شطرين : أحدهما يجري في كلدية القديمة ، والآخر ينساب في ما بين النهرين . وهذان الشطران يشكلان جزيرة واسعة يخترقها ترع عديدة .

وعندما بلغنا منقسم دجلة ، وقع نظرنا على رقعة مدينة ، كانت فيما مضى واسعة النطاق ، ولا تزال بعض أسوارها شاخصاً ، يمكن ان تسير فوقها ست عربات جنباً الى جنب . وهذه الاسوار مشيدة بالآجر ، يبلغ طول ضلع الآجرة الواحدة عشر أقدام ، وثخنها ثلاثاً (١) وتروي أخبار هذه البلاد ، أن هذه هي خراب بابل القديمة (٢) .

---

(١) ابعاد هذا الآجر مبالغ فيها مبالغة فاحشة ! فان أعظم الآجر المكتشف في العراق ، لايتجاوز طول ضلعه ٥٠ سنتمتراً وثخنه ١٢ سنتمتراً .

(٢) لايمكن ان تكون هذه الاخربة بقايا بابل ، لان سير المؤلف في نهر دجلة ، فهو يصف ما يمر به في طريقه فأين بابل من هذا الطريق ؟ =

وقد اتبعنا في سيرنا ذلك الشطر من دجلة ، الذي يجري وجانب كلدية ، خشية الوقوع بأيدي الأعراب الذين كانوا في ذلك الحين في حرب مع باشا بابل [١] ، لأنهم أبوا دفع الضريبة الى السلطان . وقد تمادى بنا السفر على ظهر الماء من بغداد الى البصرة عشرة أيام . وكنا في كل ليلة نرسو فوق الماء ونتناول طعامنا في السفينة . وعند بلوغنا قرية ما ، كنا نبعث بخدمنا الى الضفة لشراء الطعام الذي نحصل عليه بقيمة زهيدة جداً . أما المدن التي مررنا بها فهي: العمارة [٢] (Amurat) وفيها قلعة مشيدة باللبن . والشطرة (Satarat) . والمنصوري (Mansoury) وهي بلدة كبيرة . والمجر (Magar) . والعزير [٣] (Gazer). والقرنة . (Gorno) . ويقترن الفرات بدجلة عند هذه المدينة الأخيرة التي فيها ثلاث قلاع :

= والمرجح عندنا ، انها بقايا مدينة « سلوقية » عاصمة الدولة السلوقية في العراق ، وخرائبها اليوم في تل عمر ، جنوبي بغداد ، على نحو ٢٠ ميلا منها .

(١) يريد بذلك باشا بغداد .

(٢) يقول لسترنج انها « كوت الامارة » . راجع : بغداد في عهد الخلافة العباسية (ص ٨ من الاصل الانكليزي ، و ص ١٦ من الترجمة العربية) .

(٣) يذهب بعض الباحثين الى ان العزير هو قبر عزرا الكاتب صاحب « سفر عزرا » أحد أسفار التوراة .

الأولى في ملتقى النهرين وهي أحصنها ، فيها يقيم ابن أمير البصرة الذي يحكمها . والثانية في جانب كلدية . والثالثة في جانب بلاد العرب . ومع انه يطالب هناك بالرسوم الكمركية بتمامها فتدفع ، فانهم لا يفتشون أي شخص . ويصل مد البحر الى هذا المكان . ولما كان امامنا خمسة عشر فرسخاً الى البصرة ، فقد وصلنا اليها بسبع ساعات لان الريح والمد مما ساعدانا على ذلك .

تبعد بغداد عن البصرة مائة وستين فرسخاً ، وكل الأراضي الممتدة بينهما تتشابك فيها القنوات وتقسمها على نحو ما يرى في البلاد الواطئة (١) . ولا شك ان هذه الاراضي من أحسن ما يمتلكه السلطان ، لاشتمالها على مراع واسعة ومروج نضيرة يربى فيها عدد كبير من الحيوانات ، خاصة الافراس والجواميس . ومدة حمل الجاموس اثنا عشر شهراً ، وهي تدر حليباً وافراً جداً ، حتى ان بعضها يدر اثنين وعشرين بنتاً (٢) في اليوم ، وتستخلص منه مقادير وافية من الدهن . وقد وجدنا ذات مرة في بعض قرى دجلة خمساً وعشرين سفينة موسقة بالدهن الذي يبيعه أصحابه في بلدان الخليج الفارسي ، بكلا جانبيه العربي والفارسي .

---

(١) اي بلاد هولندة وبلجكة .

(٢) البنت بالباء المثلثة المكسورة (Pint) يساوي ⅛ الجالون .

وفي منتصف الطريق بين بغداد والبصرة، أبصرنا عدة سرادقات منصوبة في المروج بمحاذاة ضفة النهر. ولدى الاستفسار سمعنا ان الدفتردار آت من القسطنطينية لجباية ضرائب السلطان. فمن بغداد الى القرنة يدفع عن كل رأس جاموس، ذكراً كان ام انثى، قرش وربع قرش في السنة، فيقوم من ذلك للسلطان في السنة مائة وثمانون الف قرش. وعلى كل فرس يدفع قرشان، وعلى كل شاة عشرة سوات (١) (Sous) . ولولا تحايل أهل البلاد عند دفع الرسوم، لزاد مجموع الضرائب نحو خمسين الف قرش عما هي عليه الآن.

ثم انتهينا الى القرنة، وهي قلعة عند ملتقى النهرين، في كلتا جهتيها قلعة اصغر منها. ولا يمكن المرور من هناك بدون اذن. وفي قلعة القرنة المزودة بمدفع، التقينا بابن أمير البصرة الذي كان حاكم القلعة. وهنا يسجل حساب الكمارك. ومع ان رجال الكمرك يمعنون في تحري السفن، فانهم كثيرو اللطف فلا يفتشون أي شخص. وعند قيامهم بهذا الواجب لا يهملون التفتيش عن البضائع المخبأة بين الواح السفينة أو المغطاة بالحطب والعيدان. ولموظفي الكمرك مثقب طويل

---

(١) السو : نقد فرنسي قديم، كان يضرب من النحاس او النيكل، ويساوي $\frac{1}{20}$ من الفرنك، أي ٥ سنتيمات .

يجسون به جوانب السفينة لاكتشاف ما قد يكون فيها من بضاعة مخبأة . ان البضاعة تسجل في القرنة ، ولكن رسوم البصرة تدفع دائماً في البصرة بحسب القائمة المعطاة من قلعة القرنه .

وفي اليوم ذاته ، دخلنا في القناة التي شقت من الفرات الى البصرة ، فلقينا في طريقنا رئيس المعمل الهولندي الذي كان يتنزه في قارب مغطى بالقماش القرمزي ، فأخذني معه الى البصرة .

وتقع البصرة في جانب بلاد العرب الصحراوية ، على بعد فرسخين من خرائب مدينة كانت تدعى سابقاً طريدون (١) (Teredon) وكانت قديماً تقوم في البادية ويأتيها الماء من الفرات من قناة مبنية بالآجر لا تزال ظاهرة للعيان . ويبدو انه كان عند هذه الخرائب مدينة كبيرة (٢) ، يقتلع منها العرب الآجر ويبيعونه في البصرة . وتبعد مدينة البصرة نصف فرسخ عن الفرات الذي يسميه العرب بلغتهم «شط العرب» . وقد مد أهل المدينة قناة تذهب اليه ، طولها نصف فرسخ ، تسير فيها السفن من ذات المائة والخمسين طناً . وفي آخرها قلعة ليس لسفينة ما أن تجتاز المكان دون اذن منها . ويبعد البحر عن البصرة نحو خمسة عشر فرسخاً ، الا ان المد يأتي الى القناة

(١) راجع الملحق رقم ٢٠

(٢) راجع الملحق رقم ٢١

ويمم النهر مسافة خمسة عشر فرسخاً أخرى صعداً الى ما وراء القرنة . والأرض هناك شديدة الانخفاض ، ولولا السدود الممتدة بامتداد حافة البحر ، لتعرضت البقعة للغرق . ويبلغ طول السد أكثر من فرسخ ، وهو مشيد بالحجارة تشييداً مكيناً ، لا تعمل فيه الأمواج المائجة ، بالرغم من كونه معرضاً لبحر صاخب .

ولم يمض على البصرة أكثر من مائة سنة مذ كانت تابعة لعرب البادية ، فلم يكن لها تجارة مع أمم أوربة ، لأن أهلها كانوا قانعين بأكل تمورهم التي تتوفر عندهم بمقادير كبيرة ، وهم لا يغتذون بغيرها . وهذه الحالة في المعيشة سائدة على ما وصفنا في كلا ساحلي الخليج : فاذا سرنا من البصرة الى نهر السند (Indus) وهي مسافة طولها ستمائة فرسخ ، أو اذا سرنا والساحل العربي الى مسقط ، وجدنا فقراء الناس لا يعرفون ما هو أكل الرز ، بل يتعيشون بالتمر والسمك المملح المقدد بالهواء . والبقر عندهم لا تطعم عشباً ، واذا خرجت الى الحقول لا تجد من الاعشاب إلا الشيء الزهيد ، او قد لا تجد شيئاً منها . ولهذا ، فان اصحابها صباح كل يوم ، قبل ان يخرجوها الى الحقول ، وبعد ان يعودوا بها الى الدار ، يطعمونها رؤوس السمك ونوى التمر المسلوقين معاً .

وعندما اشتبك الترك في حرب مع العرب ، أخذوا منهم

البصرة ، غير ان العرب لما كانوا يغيرون دوماً على المدينة وينهبون ما تناله ايديهم من غنائم وأسلاب ، اضطر الترك الى عقد اتفاق معهم ، كان للعرب بموجبه حرية التنقل في البادية الى قيد فرسخ من المدينة ، وعلى ان تبقى المدينة للترك . غير ان هذا الاتفاق لم يدم طويلا ، ذلك انه كان في وسط المدينة قلعة تعرف بـ « حوش الباشا » (١) (Aushel - Basha) أو ديوان الباشا . وقد بناها الترك . ولما كانت الحامية من الترك ، والأهلون من العرب الذين لم يطيقوا التحكم بهم . فان هؤلاء العرب كثيراً ما نازعوا الترك ، وبلغ بهم الأمر الى الضرب ، فيبادر عرب البادية الى نجدة الأهلين ، ومحاصرة الباشا في القلعة . وأخيراً لما لم يمكن عقد اتفاق مثل هذا ، لما يتوقع من انتهاز أحد الطرفين المتعاقدين الفرصة لنقضه ، فان علي باشا (١) الذي كثرت المنازعات والثورات في زمنه فأتعبته وأرهقته ، قرر التخلص من هذا العبء ، فباع حكومته بألف قرش (٣) لنبيل من أغنياء البلد . فعمد هذا من فوره الى تجنيد عدد كاف من الرجال ليخشاه أهل البلد . ان هذا الرجل العظيم يسمى افراسياب

---

(١) هذه التسمية العربية عن الاستاذ يعقوب سركيس .

(٢) تحرف هذا الاسم في الرحلة الى Aiud

(٣) انظر الملحق رقم ٢٢

باشا (Efrasias) وهو جد حسين باشا الذي كان حاكماً لما مررت بها قبلا . لقد خلع افراسياب عنه النير التركي ، ولقب نفسه بأمير البصرة . أما الباشا الذي باع حكومته ، فانه ما كاد يبلغ القسطنطينية حتى شنق . وبعد استيلاء مراد على بغداد ، كان أمير البصرة يسره ان يتحفه دائماً بالهدايا والالطاف ، وخصوصاً بجياد الخيل التي تشتهر بها تلك البقعة . وعندما استولى الشاه عباس الكبير على مدينة هرمز ، ارسل جيشاً قويا بقيادة إمام قولي خان ، حاكم شيراز ، للاستيلاء على البصرة . ولما وجد الأمير نفسه أضعف من ان يقاوم هذه القوة الكبيرة ، اتفق مع عرب البادية على كسر السد الذي يحجز ماء البحر . فلما فعلوا ذلك طغى ماء البحر وأغرق ما مسافته خمسة عشر فرسخا الى البصرة بل أربعة فراسخ مما وراءها . فاضطر الفرس الذين أحدق بهم الماء ، وكان بلغهم خبر وفاة الشاه عباس ، الى رفع الحصار . ومنذ هذا الغرق ، أصبحت أراض وبساتين واسعة غامرة بكليتها ، أو ذات انتاج زراعي ضئيل ، للاملاح التي خلفها ماء البحر وراءه بعد انحساره عنها .

وصار للامير علاقات بامم اجنبية مختلفة ، فأنى توجهت لقيت ترحيبا . ويعم المدينة الطمأنينة والنظام ، حتى ليمكنك أن تسري طول الليل في شوارعها دون أن يعترض سبيلك أحد .

ويجلب الهولنديون الى البصرة التوابل كل سنة ، ويحمل اليها الانكليز الفلفل وشيئا من القرنفل . اما البرتغال فلا تجارة لهم معها . ويجلب اليها الهنود نسيج القطن والنيل وشتى أنواع السلع . وبوجيز الكلام ، ان في البصرة تجاراً من مختلف البلدان : من القسطنطينية وازمير وحلب ودمشق والقاهرة وغيرها من الأصقاع التركية ، يقصدونها لشراء مثل هاتيك البضائع التي ترد اليها من جزر الهند ، فتحمل على الابل المشتراة من هناك ، وهي التي يبيعها عرب البادية في المدينة . ان التجار الوافدين من ديار بكر والموصل وبغداد وما بين النهرين ، يشحنون بضاعتهم بطريق الماء في دجلة ، إلا ان وراء ذلك تعبا منهكا ونفقات طائلة ، لأن السفن التي يسيرها الرجال لاتتمكن من قطع أكثر من فرسخين ونصف فرسخ في اليوم ، وليس بوسعها السير ضد الرياح ، مما يضطرهم في الغالب الى اجتياز الطريق بين البصرة وبغداد بأكثر من ستين يوما . بل هناك من العقبات ما يطيل في أمد سفرهم فوق الماء الى ثلاثة أشهر .

ويستوفي الكمرك في البصرة خمسة بالمائة ولكن موظفي الكمرك أو الأمير نفسه ، يتكرمون على أصحاب البضائع عادة ، فلا يتقاضون منهم أكثر من أربعة بالمائة . ومدخول أمير البصرة شيء كثير قد يبلغ

ثلاثة ملايين ليرة [١] في السنة . ويتقوم دخله من أربعة موارد : النقود ، والخيل ، والابل ، والنخيل . والمورد الأخير رأس ثروته لأن البقاع الممتدة من ملتقى النهرين حتى البحر ، وهي مسافة ثلاثين فرسخاً ، مغطاة كلها بالنخيل . ولا يجسر أحد على لمس تمرة واحدة منها ما لم يدفع عن كل نخلة ثلاثة أرباع الطويلة (Larin) او تسعة سوات فرنسية . أما الربح الذي يحصله الأمير من النقود ، فيرده بالوجه التالي : على التجار الذين يأتون من الخارج أن يحملوا ريالاتهم الى دار الضرب العائدة للامير [٢] حيث تضرب وتحول الى طويلات ، ومدخوله من ذلك ٨ ٪ . أما عن خيله فليس في العالم ما يفوقها قابلية للسفر أو يبزها في جمال قوامها . وقد يقطع بعضها ثلاثين ساعة دون ما توقف ، خاصة الأفراس منها . ولنعد الآن الى النخيل فهي جديرة بالملاحظة . فهناك أصول فنية في إنماء هذا النخيل تختلف عن غيره من الاشجار . ذلك ان أهل تلك الديار يحفرون حفرة في الارض ، يضعون فيها مقداراً كبيراً من التمر ، بشكل هرمي وينتهي

(١) كانت الليرة في زمن تافرنييه ، كما وردت اسعارها في رحلته ، تساوي نحواً من ٧٥ فلساً .

(٢) عرفت البصرة ، في العصور الاسلامية ، بكونها داراً للضرب . وفي الخبر المذكور أعلاه اشارة الى انها ما زالت على ذلك حتى المائة السابعة عشرة للميلاد .

رأس الهرم بنواة واحدة . ثم يوارى بالتراب فينتج منه النخيل [١] .
ويقول معظم السكان ، ان من النخيل ما هو فحل وما هو أنثى .
وعليه يجب غرسهما الواحدة بجانب الأخرى ، وإلا فان أنثى النخل
لا تحمل ثمراً . ولكن غيرهم يؤكد على ان هذه الطريقة ليست ضرورية
وانه يكفي عندما يطلع الفحل أن تأخذ طلعه فتضعه في قلب [جمار]
الأنثى ، على بعد يسير من أعلى ساق النخلة ، وإلا فان الثمر يسقط
قبل نضجه .

وفي البصرة قاض ، عينه الأمير الذي يحكم هناك . وفي المدينة
أيضاً ثلاث فرق من النصارى : اليعاقبة والنساطرة [٢] ونصارى
القديس يوحنا [٣] . وفيها ايضا دار لبعث الكرمليين الايطاليين ،
وأخرى للرهبان الاغسطينيين (Austin) البرتغاليين . ولكنهم
غادروا البلدة منذ انقطاع البرتغاليين عن المتاجرة معها .

ونصارى القديس يوحنا كثيرون جداً في البصرة والقرى
المجاورة لها ، وقد كانوا في القديم يقطنون قرب نهر الأردن ، حيث

---

(١) الطريقة الشائعة في غرس النخيل في العراق اليوم ، هي ان تقلع الفراخ التي حول أمها وتغرس في الاماكن المطلوبة . وتسمى فراخ النخل الثال ، ومفردها الثالة .

(٢) أنظر الملحق رقم ٢٣

(٣) يريد بهم « الصابئة » . ولكن هؤلاء لم يكونوا في وقت من اوقاتهم فرقة نصرانية ، فهذا وهم من المؤلف .

اعتمذ مار يوحنا الذي نسبوا اليه . إلا انه منذ زمن فتح محمد لفلسطين (١) تعهد لهم بمنع التعرض بهم . ولكن خلفاءه عملوا على ابادتهم . وللوصول الى هذه الغاية خربوا كنائسم واحرقوا كتبهم واستعملوا كل وسائل القسوة ضدهم (٢) ، فاضطرهم ذلك الى الانتكاص الى بلاد ما بين النهرين وكلدية ، وبقوا مدة خاضعين لبطريرك بابل ، ثم انفصلوا عنه منذ مائة وستين سنة (٣) . ثم انتقلوا الى فارس وبلاد العرب والمدن التي في أنحاء البصرة مثل : شوشتر (٤)

---

(١) كذا ما في الاصل . والصواب ان فلسطين فتحت في أيام الخليفة أبي بكر الصديق ، لا في أيام النبي . طالع هذا الموضوع في كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٣٨ ـ ١٤٤ طبعة دي غوية).

(٢) لم نطلع على حادثة اضطهاد من هذا القبيل في تاريخ الصابئة ، وقد حصلت هجرتهم من فلسطين قبل الاسلام بزمن طويل . وكان سبب الهجرة على ما جاء في رسالة حران (حاران كاويثة) العداء الشديد بينهم وبين اليهود القاطنين في فلسطين ، مما جر الى معارك طويلة بينهم وكان الصابئة أقلية فغلبوا على أمرهم وهجروا فلسطين الى العراق وايران وعاشوا بعد ذلك بوئام تام مع الاسلام . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(٣) لم نعثر على نص تاريخي يؤيد زعم المؤلف . ولم يكونوا في وقت من الاوقات من اتباع بطريرك بابل .

(٤) بعض الامكنة التي ذكرها تافرنييه جاءت بوجه مصحف ، لم نستطع معه تحقيق اسمه العربي ، فأبقينا اسمه بالفرنجية كما ورد في الرحلة ذاتها .

(Souter) ، ودسپول (Despoul) ، ورامز [١] (Rumez) ، والباطنة [؟] (Bitoum) ، والمناوي (Mono) ، وهندجان (Endecan) ، وخلف آباد [٢] (Calafabat) ، والحويزة (Aveza) ، والدجة [٣] (Dega) ، والدورق [٤] (Dorech) ، والمعقل [؟] (Masquel) ، وكمار (Gumar) ، والكاريان [٥] (Garianous) ، والبصرة (Balsara) ، والنازور[؟] (Onezer) والزكية (Zech) ، ولوزا [؟] (Loza) . وهم لايسكنون مدينة أو قرية لا يجري فيها نهر . وقد أكد لي غير واحد من رؤساء دينهم أن هؤلاء النصارى يبلغون في كل المواطن المذكورة أعلاه ، نحو خمسة وعشرين ألف عائلة [٦] بينهم تجار ، ولكن

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٧٣٨) في كلامه على مدينة « رامهرمز » : « ان اسمها مختصر من رامهر.زأردشير . . . والعامة يسمونها رامز كسلا منهم عن تتمة اللفظة بكمالها واختصاراً » . وقد سماها ابن بطوطة (تحفة النظار ٢ : ٢٢ طبعة باريس) بلفظة « رامز » ايضاً .

(٢) هذه التسمية العربية عن الدكتور مصطفى جواد .

(٣) بتشديد الجيم المثلثة . والتسمية عن الاستاذ يعقوب سركيس .

(٤) عن الاستاذ يعقوب سركيس .

(٥) عن الدكتور مصطفى جواد .

(٦) راجع الملحق رقم ٢٤

معظمهم من أصحاب الحرف خاصة الصياغة (١) والنجارة والحدادة .

وعقيدتهم مشحونة بالخرافات والأوهام . ويسميهم الفرس والعرب الصابئة ، أي الشعب الذي ترك دينه واعتنق ديناً آخر (٢) أما هم فيسمون أنفسهم في لغتهم الخاصة « منداثية يحيى » أي اتباع يوحنا ، الذي منه ، كما يؤكدون ، استمدوا عقيدتهم وعنه تلقوا كتبهم وتقاليدهم (٣) . ويحتفلون في كل سنة بعيد يدوم خمسة أيام ، يذهبون فى أثنائها جماعات الى رؤسائهم ليعمذوهم على غرار عماذ مار يوحنا .

وهم لا يعتمذون إلا في الأنهار ، في أيام الآحاد فقط . وقبل

---

(١) ما زال الصابئة في العراق الى يومنا هذا ، موضع اعجاب الناس عامة باتقانهم صياغة الفضة وتفننهم في نقشها وتلبيسها بالميناء التي لا يضاهيهم فيها أحد .

(٢) في كتاب اللغة : صبأ ، وصبؤ : اذا خرج من دين الى دين آخر . فهو صابيء

(٣) الصابئة كما يعتقدون ، يتبعون تعاليم آدم . ولديهم كتاب « الكنزا » ، أي صحف آدم . غير ان تقادم العهد على الرسول الاول للدين ، ونفوذ بعض المذاهب الزائفة والاديان الوثنية ، كل هذه ادخلت تعاليم غريبة في الدين . فجاء يحيى ليخلص الدين من هذه المذاهب الدخيلة ، ولم يكن رسولا بل نبياً خاصاً بهم . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله) .

الذهاب الى النهر يحملون الطفل المراد تعميذه الى معبدهم (١) فيتلو فيه الكاهن، صلاة معلومة على رأس الطفل، ومن ثمة يحملون الطفل الى النهر ويرافقه رهط من الرجال والنساء. فينزل الجميع ومعهم الكاهن حتى الركب في الماء. ثم يقرأ الكاهن صلاة ثانية معلومة من كتاب يحمله بيده. وعند ذلك يرش الطفل بالماء ثلاث مرات قائلا بلغتهم ما معناه بالعربية «بسم الرب، أول وآخر العالم والجنة، الخالق العالي لكل الاشياء». ثم يقرأ الكاهن صلاة أخرى في كتابه، بينما الاشبين (العراب) يغطس الطفل كله بالماء. ويعود الجمع بعدئذ الى بيت أهل الطفل للاحتفال به.

أما أساقفتهم وكهنتهم. فاذا مات أحدهم وخلف ابناً، انتخبوا الابن مكان أبيه (٢). وإن لم يكن له ابن اختاروا الذي يليه في القرابة ممن

(١) ليس من الضروري حمل الطفل الى المعبد قبل الاعتماد ولكن «الكاهن» يقرأ بعض الصلوات خارج النهر قبل مجيء الطفل، ثم يدخل النهر منفرداً ويقف في الماء ويقرأ بعض الصلوات ثم يأتي الشخص المراد تعميذه ويتم اعتماذه. ولاحاجة لأي مرافق: فالشخص الذي يعتمذ يذهب منفرداً، الا اذا كان طفلا فيحمله شخص واحد. (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(٢) الكاهن لاينتخب انتخابا. وليست المسألة مسألة وراثة كما يتصور المؤلف. بل ان الكاهن يدرس دراسة خاصة ويمتحن ثم يصبح كاهناً بعد ان يقوم برياضة روحية خاصة. وأهم ما يجب ان يستعمله =

هو أقدر وأعرف بامور دينهم . ويصلي المنتخبون عدة صلوات على رأس المنتخب ، فإن كان المنتخب اسقفاً ، يطوف بعد توليه منصبه لتعيين آخرين ، وعليه ان يصوم ستة أيام يتلو في اثنائها صلوات معلومة مكررة على رأس الكاهن المرسوم الذي يصوم ايضا ويصلي طوال المدة المذكورة . ولما كان الابن يخلف أباه وجب على القول ان نصارى تلك الأنحاء ، يتزوج اساقفتهم وكهنتهم كسائر الناس ، غير انه اذا توفيت زوجتهم الاولى ، لا يباح لهم التزوج باخرى ما لم تكن عذراء . هذا الى ان من ينخرط في سلك الكهنوت ، يجب ان يكون من سلالة الاساقفة ، وأمه يجب ان تكون عذراء حين زواجها . ويطيل أساقفتهم لحاهم ، ويعلقون على صدورهم صليباً مثبتاً بدبوس (١) .

وفي الاحتفال بزواج ما ، يذهب الأقارب والمدعوون مع العريس

= ليكون كاهناً صغيراً (ترميذ) هو ان يحفظ « سيدرة لشماثا » و « انياني » او قسما كبيراً منهما وأما الكاهن الكبير « الكنز برا » فيجب ان يكون مطلعاً على الكثير من التفاسير والشروح الدينية ، ويجب أن يكون قد أتم ، أو حفظ كتاب الكنزا وهو كتابهم الرئيسي . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(١) لاصحة لهذا القول بتاتاً . فالاساقفة لا يعلقون شيئا على صدورهم عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

الى بيت العروس ، ويحضر الأسقف ايضا ، فيسأل العروس التي تكون جالسة تحت مظلة : عما اذا كانت عذراء ؟ فان كان الجواب بانها كذلك ، يطلب منها ان تؤيد ذلك باليمين ، ثم يعود الى الضيوف ، فيبعث بزوجته مع نساء أخريات ماهرات لفحصها . فان وجدنها عذراء حقاً ، تعود زوجة الأسقف فتؤدي اليمين بصحة الأمر . وحينئذ يذهب الجميع الى النهر ، ويعيد الأسقف تعميذ الاثنين المزمع عقد زواجهما . ثم يعودون الى البيت ، ويقفون في الطريق قبيل وصولهم اليه ، فيأخذ العريس بيد عروسه ويقودها سبع مرات من مكان الحشد الى البيت وبالعكس ، والأسقف يتبعهم في كل مرة ، ويتلو صلاة معينة . ثم يدخلون الدار ويجلس العروس والعريس معاً تحت مظلة ، واضعاً كل منهما ذراعيه قبالة الآخر . ويعود الكاهن الى الصلاة ، طالباً منهما ان يحنيا رأسيهما معاً ثلاث مرات ، ثم يفتح كتاباً في عرافة المستقبل ، ليستطلع أوفق يوم لعقد زواجهما فيخبرهما به (١) . اما اذا لم تجد زوجة الأسقف العروس عذراء ، فان الأسقف لا يواصل مراسيم الزواج . فاذا كان الشاب لا يزال راضياً بالفتاة ، عليه ان يذهب الى كاهن أوطأ درجة ، ليقوم بالاحتفال . ولهذا ، يرى الناس ان من العار الكبير عقد الزواج من

---

(١) راجع الملحق رقم ٢٥

غير حضور الأسقف . فاذا تم الزواج على يد الكاهن ، كان ذلك دليلا على ان العروس ليست عذراء .

وبما ان الكهنة يعتبرون زواج المرأة وهي غير عذراء خطيئة كبيرة أيضاً ، فانهم لا يتزوجون من مثل هذه إلا اضطراراً واجتنابا لما لا تحمد عقباه ، إذ يؤدي ذلك أحياناً الى اعتناقهم الدين الاسلامي . وسبب فحص العروس هو لكيلا يخدع الازواج ، وكذلك لابقاء الفتيات متهيبات حذرات .

أما عقائدهم في خلق العالم (١) ، فيقولون ان الملاك جبرائيل أخذ على عاتقه خلق العالم على ما أمره الله به . فأخذ معه ثلثمائة وستة وثلاثين ألف شيطان ، وجعل الأرض خصبة للغاية ، بحيث اذا زرعت في الصباح حصدت في المساء . وان هذا الملاك علم آدم الغرس والزرع وكل العلوم الأخرى اللازمة . وهذا الملاك صنع الكرات السبع السفلى ، أصغرها يصل الى مركز الكون بالوجه الذي عليه السماوات . وكلها مرسومة الواحدة في داخل الأخرى ، وهذه

---

(١) يعتقدون ان الله أراد أن يخلق العالم ، فجعله في ماء اولا . ثم أمر جبرائيل فهبط اليه وجمده وجعله تربة كما هي وقصة خلق العالم عندهم طويلة ، وتجدها مفصلة في كتاب « الكنزا » مما لا يتسع له المقام هنا .
(عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

الكرات تختلف في معدنها : فالأولى التي تلي المركز من الحديد ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الشبه ، والرابعة من النحاس ، والخامسة من الفضة ، والسادسة من الذهب ، والسابعة من التراب . وهذه الأخيرة تحتوي على جميع ما في غيرها من مواد ، وهي رأس الكل كما انها أكثرها خصباً وثمراً للانسان وأوفقها لحفظ الجنس البشري . أما الكرات الأخرى فالظاهر أنها صنعت لتحطيم البشرية . ويعتقدون ان فوق كل سماء ماء ، ويستنتجون من ذلك ان الشمس تسبح في سفينة فوق الماء ، وان صاري تلك السفينة صليب ، وان عدداً كبيراً من الغلمان والخدم يقودون سفينتي الشمس والقمر . وعدا ذلك ، فعندهم صورة قارب يقولون انه الملاك باكان (Bacan) الذي يرسله الله لزيارة الشمس والقمر ولرؤية ما اذا كانا يتحركان حركة صحيحة أم لا .

أما بخصوص العالم الآخر والحياة الآتية (١) ، فيعتقدون ان

(١) بخصوص العالم الآخر يعتقدون ان هناك الجنة ويسمونها « الماه دنهودة » وترجمتها « عالم النور » ، كما هناك نار ويطلق عليها اسم « اور » ويتصورونها مخلوقا كبيراً يبتلع الاشرار . وبين الجنة والنار شيء ثالث هو ما يسمونه « المطراثي » أي المطهر . وفي هذا المحل تعذب الارواح التي ارتكبت ذنوباً بسيطة ويكون عذابها لامد محدود . ثم تنتقل منها الى

ليس من عالم سوى ذلك الذي يعيش فيه الملائكة والشياطين ، فتستقر معهم النفوس الصالحة والطالحة . وفي ذلك العالم مدن وبيوت وكنائس . وللنفوس الشريرة أيضا كنائس تصلي فيها وترتل وتحتفل بآلات الطرب ، وهي تعيّد كما في هذا العالم . وحينما يدنو الانسان من ساعة الموت ، يأتي ثلثمائة وستون شيطاناً ويحملون روحه الى محل مليء بالثعابين والكلاب والأسود والنمور والأبالسة . فان كانت الروح لانسان شرير ، مزقته تلك المخلوقات إرباً إرباً ، وان كانت لانسان صالح ، فان الروح تزحف تحت بطون هذه المخلوقات الى حضرة الله الجالس على كرسي جلاله لادانة العالم . وهناك ايضا ملائكة تزن أرواح البشر في ميزان ، فان ظهر المرء صالحاً تمتع بالمجد حالاً . وهم يعتقدون ان الأبالسة رجال ونساء ، وانهم يتوالدون ، وان الملاك جبرائيل (١) هو ابن الله ، حبل به من النور ،

= مواضعها في عالم النور . ويعتقدون ان « اور » الذي يأتيهم الاشرار يأتي من عالم الشياطين ، وان عالم النور مملوء بالملائكة الصالحين . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(١) يعتقدون ان الله لم يلد ولم يولد . وان جبرائيل هو ابن احد الملائكة الصالحين الذي يسمونه « مندا اوهي » وليس ابن الله . ولم يكن لجبرائيل بنت ، بل له ابن اسمه « ايذاهيل » . ولا يعتقدون بأنه يتأثر بالشياطين كما يذكر المؤلف ولكن هناك خرافات كثيرة بطلها جبرائيل ، وحوادثها تدور في الجنة وفي بلد الشياطين ، يمكنك الاطلاع عليها في كتاب « الكنزا » . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله) .

وان له بنتاً تدعى سوريت (Souret) لها ابنان . وان بامرة جبرائيل سبع فرق من الشياطين ، هم بمثابة الجنود ورجال العدل ، يبعث بهم من مدينة الى مدينة ومن بلدة الى أخرى ليعاقبوا الأشرار .

أما عن الأولياء ، فيعتقدون ان المسيح تلمذ اثني عشر حوارياً ليعظوا الأمم . وان العذراء مريم ليست ميتة ، انما تحيا في مكان ما في العالم على الرغم من انه ليس من يقول اين هي . ويليها مار يوحنا وهو أعظم أولياء الجنة . ويليه زكرياء واليصابات ، ويروون عنهما كثيراً من الأعاجيب والاقاصيص المزيفة . لأنهم يعتقدون ان هذين أولدا يوحنا بالمعانقة فقط . ولما بلغ يوحنا مبلغ الرجال زوجاه فولد له أربعة بنين ، ولدوا فوق مياه الاردن . وهم يعتقدون ان يوحنا حينما ابتغى ابناً ، صلى الى الله ، فسحب له واحداً من الماء . وهكذا لم يبق لمار يوحنا من علاقة مع زوجه إلا ان يعطيها الطفل لتربيه . وان يوحنا مات ميتة طبيعية ، ولكنه أمر تلاميذه أن يصلبوه بعد وفاته تشبهاً منه بالمسيح . واخيراً يعتقدون بأنه مات في مدينة فوستر (١) (Fuster) ، وانه دفن فيجدث بلوري جاب باعجوبة الى هذه المدينة ، وان قبره كان في بيت ما قرب

(١) لعل المؤلف يريد بها مدينة « شوشتر » .

نهر الاردن .

وهم يكرمون الصليب (١) تكريماً بليغاً ، ويسمون أنفسهم به ويعنون كثيراً باخفاء ذلك عن أعين الترك . وهم يقيمون حارساً على أبواب كنيستهم في أثناء احتفالاتهم خوف ان يدخلها الترك فيفرضوا عليهم غرامة مجحفة . وبعد أن يفرغوا من تكريم الصليب يجعلونه قطعتين ولا يجمعون بينهما إلا لأداء صلاة ثانية .

ان تكريمهم الصليب بهذا الوجه ، مستمد من كتاب عندهم عنوانه « الديوان » ورد فيه ان في صباح كل يوم ، يأخذ الملائكة الصليب ويضعونه في وسط الشمس فيقتبس ضياءه منها على نحو ما يفعل القمر (٢) . وفي هذا الكتاب أيضا صورة سفينتين إحداهما تسمى « الشمس » والاخرى « القمر » وفي كل من هاتين السفينتين صليب مزدخر بالأجراس ،

(١) هم يكرمون ما يسمونه « دربهة اد يهيه » أي علم يحيى وهو في تركيبه يشبه الصليب وله كسوة من القز . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(٢) يعتقدون أن الشيء المضيء في الشمس أو القمر هو « دربهة اديهيه » مشابه لما يستعملونه . وعند المغرب يطوى من الشمس فتغيب ويفتح في القمر فيشرق . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

واذا خلت السفينتان من صليب يضمحل النور من الشمس والقمر ، وتتعرض السفينتان للغرق .

وأعظم أعيادهم ثلاثة : أحدها في الشتاء ، ومدته ثلاثة أيام ، وهو لذكرى أبوينا الاولين وخلق العالم . والثاني يقع في شهر آب وهو ثلاثة ايام ايضا ، ويعرف بعيد مار يوحنا . والثالث في حزيران ومدته خمسة أيام ، يكرر فيه الجميع اعتماذهم . وهم يعطلون في يوم الأحد فلا يعملون عملا في ذلك النهار . وليس لهم صوم (١) ولا توبة روحية ، ولا كتب منزلة ، ولهم مما سواها غير كتاب لا يعالج غير السحر (٢) وهم يعتقدون ان كهنتهم في غاية التمهر من

(١) يصومون عن اللحم ٣٦ يوماً مقسمة بين أيام السنة (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

(٢) عندهم كتاب الـكنزا ، ويعتقدون انه هو صحف آدم بنفسها ، ويختص بالفاتحة وبالوعظ وبصفات الخالق وكيفية انشاء العالم . وعندهم كتاب « سيدرة نشمانه » ويعتقدون انها انزلت على آدم أيضاً ، وهي الصلوات التي يقرأها الكاهن في حفلة الاعتماذ . وعندهم كتاب « الانياني » وهو اناشيد تختص بالصلاة اليومية . وجميع هذه لا علاقة لها بالسحر . وهنالك كتب كثيرة يسمونها « الدواوين » و « الشروح » وهي تفاسير لمسائل دينية مختلفة . والكتاب الوحيد الذي فيه شيء من التنجيم ، هو الذي يسمونه « اسفر ملواشة » أي « كتاب البروج » ولا يستعملونه للسحر بل لحساب طوالع الاشخاص واستنتاج أسمائهم الدينية . والسحر بمعناه المتداول محرم عندهم . (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله)

هذا الامر ، وان الابالسة زهن اشارتهم . وعندهم ان النساء جميعاً غير طاهرات ، وانه لا حق لهن مطلقا بدخول المعبد .

ولهم احتفال ديني يسمونه احتفال الدجاجة (١) ، تجري فيه حفلة كبيرة ، لا يقيمها الا كاهن مولود من امرأة كانت عذراء حين زواجها . فعند ذبح الدجاجة يخلع الكاهن رداءه المعتاد ، ويضع عليه قطعة من الكتان ، ويتزر بثانية ، ويرمي بثالثة على كتفيه كالمنديل ، ثم يأخذ الدجاجة ويغطسها في الماء ليطهرها ، ثم يتجه صوب الشرق ويقطع رأسها ماسكا بجسمها في يده الى ان يستنزف آخر قطرة من دمها . وفي اثناء انهراق دمها يرفع عينيه الى السماء متولها . قائلا بلغته الكلمات التالية : « بسم الله .

---

(١) لا يسمى هذا « احتفال الدجاجة » كما ذكر المؤلف . ولا هو « احتفال » بالمعنى المعروف . بل ان اصول الذباحة عندهم هي ان يلبس الذابح الرداء الديني المعروف بـ « الرستة » وهو يتألف من قميص وسروال وعمامة وحزام وما يسمونه بـ « النصيفة » وجميعها بيضاء اللون . ثم تغسل الذبيحة بالماء الجاري ، ويذبحها الذابح مستقبلا الشمال لا الشرق ، ولا يجوز مس الذبيحة بالارض ولكن يجوز وضعها على القش المغسول بالماء . أما الشخص الذي يتولى الذباحة فكل رجل سبق ان اعتمد ، وليس محروماً من ممارسة الحقوق الدينية . ولهم اساليب وانظمة كثيرة فيما يخص الحرمان (عن الاستاذ عبد الجبار عبد الله) م

ارجو ان يكون هذا اللحم مفيداً لمن يأكله ». وهم يتبعون ذلك عند ذبح الشاة ، فيغسلونها بالماء وينثرون عليها الاغصان . ويشترك غير واحد من الناس في هذه الحفلة ، حتى لكأن الذبيحة قربان مقدس . وان سألتهم لم لا يجوز شرعا للرجل العادي ذبح الطيور ؟ أجابوك انه لا حق له بالصلاة عليها ، فكيف بذبحها ؟ وهذا كل ما يمكن ان يذكروه لك من اسباب .

اما عن الخلاص فيقولون ان الملاك جبرائيل بعد ان سوى العالم بامر الله ، خاطب الله : « يا إلهي ! أنظر ، لقد بنيت العالم كما أمرتني ، فاوقعني ذلك في مشقة كبيرة ، وكذلك جهد اخواني في رفع هذه الجبال الشامخة التي تبدو كأنها تسند السماء . ومن بامكانه ان يشق طريقاً للانهار بين الجبال بلا أتعاب جمة ، ويضع كل شيء في المكان اللائق به ؟ يا إلهي العظيم ! بمعونة ذراعك القوية أقمنا دعائم العالم على نحو ما ترى ، فلا يفكر البشر في شيء ما إلا وجدوه فيه . ولكن عوضاً عن الرضا والقبول اللذين نستحقهما بعد إنجاز هذا العمل العظيم ، لم أجد إلا ما يحزن ويؤلم ! » . ولما طلب الله منه علة ذلك ، أجاب الملاك جبرائيل : « يا إلهي وأبي ! سأقول لك ما يؤلمني . انني بعد ان صنعت العالم ، تنبأت ان سيلجه عدد هائل من اليهود والترك او من عبدة الأصنام وغيرهم من الكافرين أعداء

اسمك الذين لا يستحقون ان يأكلوا أو يتمتعوا بثمار جهدنا » .
فأجابه الله على هذا : « لا يخامرنك الحزن يابني ! سيسكن في هذا العالم الذي بنيت نصارى القديس يوحنا الذين سيكونون اصدقائي ، وسيخلصون جميعاً » . عندئذ عجب الملاك من كيفية تحقق ذلك ، فقال : « ماذا ؟ الا يقوم بين نصارى يوحنا خطاة كثيرون ؟ وبالتالي ألا يصبحون أعداءك ؟ » نختم الله كلامه معه بقوله : « في يوم الدين ، على الصالح ان يصلي لأجل الطالح ، وهكذا يغفر لهم جميعاً وينالون الخلاص (١) » .

وينفر هؤلاء الصابئة من اللون الازرق النيلي ، بل لا يلامسونه قط ، وسبب ذلك ان بعض اليهود حلموا بأن شريعتهم سيبطلها مار يوحنا فأخبروا مواطنيهم بالأمر . فلما فهم هؤلاء ذلك ورأوا ان مار يوحنا قد استعد لتعميذ المسيح ، بحثوا في حالة غضبهم عن كمية كبيرة من النيل ورموها في نهر الاردن . فتلوثت مياه النهر وبقيت غير طاهرة مدة ، وكاد يتعرقل عماذ المسيح ، لولا ان الله ارسل ملائكته ومعهم إناء للماء كبير أمرهم بملئه من نهر الاردن قبل ان يلوثه اليهود بالنيل . وكان من ثمة أن الله لعن هذا اللون خاصة .

---

(١) لم أطلع على هذه القصة . وأرجو ان تؤخذ بتحفظ (عبد الجبار عبد الله)

الفصل الرابع (من الكتاب الثالث من الرحلة)

الطريق الآخر من حلب الى توريز [تبريز] وهو المار بالجزيرة وغيرها من البلدان

من حلب الى البيرة ، حيث عليك عبور الفرات :	أربعة أيام
ومن البيرة الى أورفا :	يومان
ومن أورفا الى دياربكر :	ستة أيام
ومن دياربكر الى الجزيرة :	أربعة أيام

الجزيرة (١) بلدة صغيرة من بلدان مابين النهرين ، تقوم على جزيرة في نهر دجلة ، يعبر اليها فوق جسر من القوارب ، ويقصدها التجار لشراء العفص والتبغ . ويسوس المدينة رجل بلقب « بك » .

وبعد عبور دجلة ، ترى الارض بين هذا النهر وتبريز سهولا ومرتفعات ، وتكسو المرتفعات أشجار البلوط التي تحمل العفص

---

(١) يريد بها « جزيرة ابن عمر » التي وصفها ياقوت الحموي (معجم البلدان ٢ : ٧٩) بقوله انها « بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام ، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات . وأحسب ان اول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي . . . . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة شبه الهلال ، ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء ونصبت عليه رحى ، فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق . . . » .

وقليلا من البلوط . أما السهول فمزروعة بالتبغ الذي ينقل الى تركية ، وله تجارة رائجة متسعة . وقد يتبادر الى الذهن ان هذه البقعة فقيرة ، إذ لا تقع العين الا على العفص والتبغ ، ولكن الواقع ان ليس في العالم أرض أخرى يتداول فيها بالذهب والفضة بأكثر مما هنا ، إذ ان أهلها يعنون حين تسلمهم النقود ، بأن تكون كاملة الوزن ، جيدة المعدن . ان العفص من المواد المستعملة عادة في الصباغة ، وليس في أية بقعة ما يدانيه جودة ، فهو يدر أرباحاً واسعة على هذه البلاد التي لا قرى فيها . وترى بيوتها متناثرة ، يبعد الواحد عن الآخر مسافة رمية بندقية ، ولكل من السكان رقعته من بساتين الكروم . وهم يجففون العنب إذ لا يعصرون منه خمراً .

ومن الجزيرة الى العمادية : يومان

والعمادية (١) ، بلدة طيبة ، واليها يجلب أهل معظم بلاد اشور تبغهم وعفصهم . وهي تقع على جبل عال لا يمكن تسنم قمته بأقل من ساعة (٢) . وفي منتصف الطريق تتفجر من بين الصخور ثلاثة او أربعة ينابيع يرتادها الاهلون بمواشيهم ، ويملأون قربهم منها كل صباح ، إذ لا ماء في المدينة . والعمادية بلدة ليست بالكبيرة

---

(١) انظر الملحق رقم ٢٦

(٢) تعلو العمادية عن سطح البحر ١٢٧٦ متراً.

ولا بالصغيرة (١) ، تتوسطها قيسارية كبيرة فيها دكاكين تضم كل أصناف التجار (٢) والبلدة بإمرة « بك » ، بوسعه ان يجمع ثمانية او عشرة آلاف فارس ، وقوة من المشاة تفوق ما عند أي بك آخر ، وذلك لازدحام منطقته بالسكان .

ومن العمادية الى جولمرك (Giousmark): أربعة أيام

ومن جولمرك الى ألبك (Alback) : ثلاثة أيام

ومن ألبك الى سلماس (Salmastre) : ثلاثة أيام

وسلماس بلدة لطيفة على حدود الاشوريين والماذيين ، وهي أول بلدة في أراضي ملك فارس . ولا تحط فيها القوافل لأنها تشذّ عن الطريق بأكثر من فرسخ . ولما تحط القافلة رحالها ، يذهب اثنان او ثلاثة من كبار التجار مع الكروان باشي بحسب العرف ، لزيارة الخان (Kan) . ويسر الخان كثيراً ان تسلك القافلة هذا الطريق . ويخلع على الكروان باشي وعلى من برفقته خلعة تشريف ، تتألف من كالات (Calaat) وعمرة (Bonnet)

---

(١) تبلغ مساحة العمادية نحواً من عشرة آلاف متر مربع .

(٢) أما اليوم ، ففيها سوق صغيرة ، تحتوي على ثلاثين دكاناً . وللوقوف على احوال العمادية في وقتنا هذا ، راجع « دليل المصايف العراقية » ليونان عبو اليونان (الموصل ١٩٣٤)

ومنطقة (Girdle)وهذا غاية التشريف الذي يتفضل به الملك أو حكامه على الاجانب .

ومن سلماس الى تبريز : أربعة أيام

فالرحلة من حلب الى تبريز تستغرق في هذا الطريق اثنين وثلاثين يوماً ومع ان هذا هو أقصر السبل واوفقها لقلة ما يدفع في اثنائه من الرسوم ، فان التجار لا يجرأون كثيراً على سلوكه خشية ان ينالهم سوء من معاملة البكات لهم .

وطهران [؟] (Teren) التي يسمي الفرس عاصمتها شهريار [؟] (Cherijar) ولاية بين مازندران ومنطقة الفرس القديمة المعروفة اليوم باسم هراة [؟] (Hierac) [١] ، وهي في جنوب شرقي اصفهان . هواؤها طيب يختلف عن هواء جيلان . ويقصدها الملك طلباً لنقاوة الهواء والتماساً للصيد ، هذا الى ان أشهى الثمار متوافرة في كثير من انحائها . وعاصمتها التي يسميها بعضهم باسم الولاية متوسطة السعة ، ليس فيها ما يستحق الملاحظة . إلا ان على نحو فرسخ منها خرائب مدينة كبيرة كان محيطها فرسخين ، واقسام من السور قائمة ، ورأينا جملة حروف منقوشة في

---

(١) لم يتحقق عندنا مايريده المؤلف بهذه المواطن الثلاثة : Teren ، Cherijar ، Hierac وانا في شك من صحة اسمائها العربية .

الأحجار التي كانت مثبتة في السور ، ولكن لا الترك ولا الفرس ولا العرب يتمكنون من قراءتها[١] . وهذه المدينة مستديرة ، تقع على تل عال في قمته خرائب حصن يزعم الأهلون هناك انه كان مسكناً لملوك فارس .

(١) لعل هذه الكتابة كانت بالحروف المسمارية ، التي لم يتوصل العلماء الى حل رموزها الا في القرن التاسع عشر .

الفصل الخامس (من الـكتاب الثالث من الرحلة)

الطريق من حلب الى اصفهان ، ماراً بالبادية الصغيرة وكنكور

سأصف هذا الطريق كما لو كنت آيباً من اصفهان الى حلب. فهو يمر بكنكور وبغداد وعانة ، ثم يدخل البادية التي أسميها البادية الصغيرة ، لانه يمكن قطعها بوقت أقصر كثيراً مما تتطلبه البادية الكبيرة الممتدة جنوبا الى بلاد العرب السعيدة ، وبامكانك ان تجد الماء غالباً في البادية الصغيرة ، لأن الطريق الذي يسلك لايبعد كثيراً عن نهر الفرات . ومن يحسن ركوب الخيل ، قد يقطع الطريق من أصفهان الى حلب في ثلاثة وثلاثين يوماً كما فعلت أنا ، بل قد يقطعها في أقل من ذلك ، إن كان الاعرابي الذي يرافقه من بغداد دليلا ماهراً عارفا أقصر سبل البوادي والقفار .

وتستغرق قافلة الخيل في سفرها من اصفهان الى كنكور أربعة عشر او خمسة عشر يوما . أما إن كانت مؤلفة من رفقة قوامها عشرة او اثنا عشر فارساً ، فقد تقطعها في خمسة او ستة أيام. والاراضي التي تسير فيها غاية في الخصوبة ، وفيرة القمح والرز والفواكه الفاخرة ، وفيها الشراب الجيد ، خاصة في جهات كنكور ، المدينة الكبيرة الكثيرة السكان .

تمادى بنا السير من كنكور الى بغداد عشرة أيام ، والبقعة ليست في شيء من الخصب ، بل انها كثيرة الأحجار والصخور في بعض الاقسام ، وفيها السهول والتلول الصغيرة . ولم أر جبلا ما في هذا الطريق .

وان كان المسافر مستعجلا ، فأولى به ان يسلك الطريق التالي ذكره :

من اصفهان الى خوانسار

ومن خوانسار الى قم [?] (Comba)

ومن قم [?] (Comba) الى اورانكية [?] Oranguiė)

ومن اورانكية (Oranguiė) الى نهاوند

ومن نهاوند الى كنكور

ومن كنكور الى سنا (Sahna)

ومن سنا الى بوليشا [?] (Polisha) او القنطرة الملكية ، وهي قنطرة كبيرة من الحجارة .

ومن بوليشا (Polisha) الى ماهي دشت (Mai Dacht)

ومن ماهي دشت الى هرون آباد (Eroun Abad)

ومن هرون آباد الى خانقين (Conaguy)

ومن خانقين (Conaguy) [خانقين الايرانية] الى قصر

شيرين (Casli Scirin)

ومن قصر شيرين الى خانقين [خانقين العراقية] .

(Iengui Conaguy)

ومن خانقين الى قزلرباط (Casered)

ومن قزلرباط الى شهربان (Charaban)

ومن شهربان الى بوهرز (Bourous)

ومن بوهرز الى بغداد

ومدينة كنكور ، قد يستعاض عنها أثناء السفر بمدينة همذان ، وهي من أمهات المدن الفارسية على الطريق . ومنها الى توچرا [؟] (Toucheré) ولكن الطريق أطول . واذا سلكت الطريق التي بينهما ، فانك تترك همذان الى الشمال على يدك اليمنى .

وبين سنا وبوليشا (Polisha) ترى شمالا الجبل العالي الوحيد في كل الطريق ، وهو جبل أشمّ قائم الانحدار كأنه السور . فاذا صعدت نظرك الى أعاليه لاحظت صور رجال بملابس الكهنة ، عليهم الأوشحة ، وبأيديهم المجامر . على انه ليس بين الاهلين من يخبرك بشيء عنها ، بل ولا من يتصور معنى هذه المنحوتات . وفي حضيض الجبل نهر جار عليه قنطرة من الحجر .

وعلى مسيرة يوم فيما وراء الجبل ، بلدة صغيرة ذات موقع جميل . ان الجداول التي تسقي هذه البلدة ، والفواكه الشهية التي تنمو في بساتينها ، والخمرة الفاخرة التي تصنع فيها ، كل ذلك يجعلها من أطيب البقاع . ويعتقد الفرس ان الاسكندر لما رجع من بابل مات فيها ، بالرغم من ان هناك من كتب ان الاسكندر مات في بابل (١) . أما بقية الاراضي التي بين هذه المدينة وبغداد ، فمغطاة بالنخيل ، ويقيم الاهلون في خصاص صغيرة مصنوعة من سعف النخيل وجذوعه .

ومن بغداد الى عانة أربعة أيام على الظهر ، والمسافة بينهما ارض صحراوية ، على كونها بين نهرين .

وعانة ، بلدة لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، يسوسها أمير عربي . والى مايقرب من نصف فرسخ حوالي البلدة ، ترى الارض مزروعة ، زاخرة بالبساتين والبيوت الريفية . والمدينة في موقعها تشبه باريس ، لأنها مبنية على جانبي نهر الفرات ، وفي وسط النهر جزيرة يقوم فيها مسجد بديع (٢) .

---

(١) في المراجع التاريخية الموثوق بصحتها ، ان الاسكندر الكبير ، مات في بابل ، في ٢١ نيسان سنة ٣٢٣ ق . م ، وكان له من العمر ٣٢ سنة ، قضى منها في الحكم ١٢ سنة و ٨ أشهر .

(٢) انظر الملحق رقم ٢٧

ومن عانة الى مشهد رحبة (١) (Mached - Raba) خمسة أيام ركوبا . ومن مشهد رحبة الى الطيبة (٢) (Taiba) خمسة أيام أخرى .

ومشهد رحبة ، حصن على مقربة من الفرات ، يقوم فوق تل في اسفله عين ماء كأنها وعاء كبير ، ومثل هذه العيون مما يندر وجوده في البوادي . والبقعة محاطة باسوار عالية ، محصنة بابراج ، وفي داخلها أكواخ صغيرة يأوى اليها السكان بمواشيهم التي يملكون منها شيئاً كثيراً ، غير ان الخيل فيها تفوق الابقار كثرة .

وكذلك الحال في الطيبة ، فانها موضع محصن مبني في ارض ممهدة ، تبدو كأنها دكة عالية من طين ولبن . وبالقرب من بابها ، عين تنبع يصير منها ما يشبه البركة . وترى أغلب سالكي هذا الطريق المار بالطيبة ، هم الذين يجتازون البادية من حلب أو دمشق الى بغداد ، او من دمشق الى ديار بكر ، بسبب وجود هذه العين هناك .

---

(١) انظر الملحق رقم ٢٨

(٢) قال الرحالة فيليب الكرملي ، الذي زار الشرق في سنة ١٦٢٩ م في رحلته المطبوعة سنة ١٦٧١ م انه بعد مرحلتين من الطيبة (Theibas) وصل الى الرحبة الواقعة على تل لايبعد كثيراً عن الفرات وبعد مسيرة أخرى وجد جزائر صغيرة قرب بلدة عانة .

ومن الطيبة الى حلب مسيرة ثلاثة أيام ، غير ان هذه الايام الثلاثة هي أخطر مراحل الطريق ، لكثرة من ينتابها من قطاع الطرق . والواقع هو ان تلك البقعة لا يقطنها غير الرعاة او البدو الذين لادأب لهم سوى سلب الناس ونهبهم .

والآن ، لنأخذ الطريق ذاته من حلب الى أصفهان ، وهذا مسلكه

	يوم
من حلب الى الطيبة	٣
ومن الطيبة الى مشهد رحبة	٥
ومن مشهد رحبة الى عانة	٥
ومن عانة الى بغداد	٤
ومن بغداد الى بوهرز	١
ومن بوهرز الى شهربان	١
ومن شهربان الى قزلرباط	١
ومن قزلرباط الى خانقين	١
ومن خانقين الى قصر شيرين	١
ومن قصر شيرين الى خانقين [هي غير خانقين التي في العراق]	١
ومن خانقين الى هرون آباد	١

	يوم
ومن هرون آباد الى ماهي دشت	١
ومن ماهي دشت الى سنا	١
ومن سنا الى كنكور	١
ومن كنكور الى نهاوند	١
ومن نهاوند الى اورانكية (Oranguié)	١
ومن اورانكية (Oranguié) الى قم (Comba)	١
ومن قم (Comba) الى خوانسار	١
ومن خوانسار الى اصفهان	١

فاذا اردت السفر من حلب الى اصفهان ، أو من اصفهان الى حلب ، كان من السهل عليك أن تقطعه ركوبا في ثلاثين يوماً . وهذه الملاحظة توصلت اليها من ان رجلا قطع هذا الطريق ، من الاسكندرونة بيومين زيادة عما ذكرت ، فان وجد المرء مركباً على أهبة الاقلاع الى مرسيلية ، وكانت الرياح موافقة له ، فقد يتاح له السفر من اصفهان الى باريس بشهرين .

وذات مرة ذهبت من حلب الى كنكور ، وكذلك الى بغداد ، ومنها اجتزت البادية . وقد التقيت في بغداد برجل اسباني كان آخذاً الطريق نفسه الذي علي ان اسلكه . فكان

ذلك من حسن حظي ، لأنه سيتحمل نصف نفقات الدليل ، إذ حالما استخدمناه بأجرة ستين كراونا ، رحلنا من بغداد ، وكنا ثلاثة : الاسباني ، وأنا ، وأعرابينا الذي كان ماشياً ، يسير على نحو رمية مسدس امام خيلنا . وفي طريقنا من بغداد الى عانة لم نمر بشيء ذي بال ، ولكننا رأينا فقط أسداً ولبوءة مجتمعين . وقد ظن دليلنا اننا كنا خائفين منهما ، فأخبرنا بأنه قد صادفهما غير مرة ولم يبد منهما أي أذى .

أما صاحبنا الاسباني ، بالرغم من نزعة المرح المشهورة بها أمته ، قد كان متزمتاً ، وكان يكتفي في ادامه ببصلة او ما الى ذلك من طعام زهيد ، دون ان يراعي دليله . بينما كنت أنا بعكس ذلك ، فلا يمر يوم دون ان انفح هذا الدليل بشيء ما . ولما كنا على رمية بندقية من عانة التقينا بشيخ طيب النفس ، أقبل الي واخذ بلجام حصاني وقال : « أيها الصديق ، هلمّ واغسل قدميك ، وكل خبزاً في بيتي ، فانك رجل غريب ، وبما اني لقيتك في الطريق فلا ترفضن هذا الطلب الذي أرجوه منك » . ان دعوة هذا الشيخ لتشبه عادة الناس في الأزمنة القديمة ، التي قرأنا أمثلة عديدة عليها في الاسفار المقدسة . ولم يكن منا إلا تلبية طلبه . فلما صرنا الى بيته الفيناه قد أعد لنا وليمة فاخرة ، إذ ذبح لنا خروفاً ودجاجاً ، كما انه قدم لخيلنا

طفاً . لقد كان هذا الشيخ من سكان عانة ، وهو يقيم عند النهر الذي كان علينا عبوره لتراجع الحاكم في أمر جوازاتنا (١) التي دفعنا عن كل منها قرشين . ومكثنا في دار على مقربة من باب المدينة واشترينا ماتحتاج اليه من طعام لنا ولخيلنا . وكانت لصاحبة الدار طفلة في التاسعة من عمرها ، استهوتني بمرحها ، فأهديت اليها منديلين من نسيج قالقوط المبرقش ، فأرتهما الطفلة أمها ، فابت الأم حينذاك ، أن تأخذ منا ثمن الطعام الذي أعطتناه ، بعد ان كنا قد اتفقنا على ثمنه .

وعلى نحو خمسمائة خطوة من باب مدينة عانة ، مررنا بشاب من أسرة كريمة ، يرافقه خادمان ، وكان راكباً حماراً مؤخرته مخضبة بالحناء . فدنا مني مسلما ، ثم قال : أمن الممكن ان الاقي غريباً وليس عندي ما أهديه إليه ؟ لذلك حاول ان يأخذنا معه الى بيته في الريف ، بيد أننا أصررنا على المضي في طريقنا ، فألح علي حينذاك ان أقبل غليونه دون أن يلتفت الى اعتذاري عن قبوله منه بكوني لاأدخن . فما كان لي إلا أن أقبله !

---

(١) جوازات السفر (الپاسپورت) أمر كان معروفاً منذ القدم . راجع مقال : أجوزة السفر في العصور الاسلامية لميخائيل عواد (مجلة الرابطة ١ [١٩٤٤] العدد ٧ ، ص ١٦٥ — ١٦٨)

وعلى نحو ثلاثة فراسخ من عانة ، بينما كنا ذاهبين لنأكل بين أخربة بيوت ومفكرين بالمكوث هناك حتى منتصف الليل ، أبصرنا أعرابيين جاءا من لدن الأمير ، ليخبرانا بان عنده رسائل يبغي تسليمها لنا لايصالها الى باشا حلب . فعدنا أدراجنا الى عانة إذ لم يكن بوسعنا ان نرفض الطلب . ولما وصلنا الى المدينة في اليوم الثاني ، رأينا الأمير ذاهباً الى الجامع ممتطياً صهوة جواد مطهم ، يحف به رهط من الناس وجميعهم مشاة ، مع كل منهم خنجر كبير مثبت في حزامه . فلما رأيناه ترجلنا ووقفنا بحذاء الدور وسلمنا عليه حين مروره بنا . وما ان وقع نظره على دليلنا حتى هدده ببقر بطنه قائلا : أيها الكلب ! ستنال مني جزاء ذلك ، وأعلمك درساً في كيف تسفر الغرباء قبل ان أرام . ثم قال خذهم الى مقر الحاكم حتى أعود من الجامع . فلما عاد من الجامع وأخذ مكانه في ردهة فسيحة ، أرسل بطلبنا مع دليلنا الذي هدده مرة ثانية لخروجه بنا من المدينة دون علم منه . غير ان الحاكم استعطف الأمير واسترضاه ، ثم أمر بجيء لنا بقهوة ، وطلب فتح الخرجة التي نحملها على الخيول وراءنا لعل فيها ما يطيب له . لقد كان في خرجي قطعتان من نسيج قالقوط ملونتان تلويناً بديعاً ، وغطاءان للفراش ، ومنديلان من نسيج قالقوط ، ومحبرتان فارسيتان مزوقتان بالميناء اليابانية ، وسكينتان بزخارف

دمشقية ، إحداهما مطعمة بالذهب والاخرى بالفضة . فكل هذه الاشياء أحبها وحملني على إعطائها له . ولم يجد شيئاً في خرج الاسباني غير ملابس عتيقة . ولكن بعد ذلك علمنا ان عند الاسباني بعض قطع الماس ، فعاقبه القنصل الفرنسي في حلب ، بان يدفع لي نصف قيمة ما أعطيته للامير في عانة .

واكتفى الأمير بما أخذه مني . وأمر بان نزود بالطعام لنا ولخيلنا ، الا اننا ، نظراً لتزودنا بذلك من ذي قبل ، لم نأخذ غير ثلاث او أربع حفنات من التمر الفاخر ، لنبدي له اننا لم نرفض عطفه .

وعلى الدليل بين عانة ومشهد الرحبة ، أن يعنى بوجه خاص بتنظيم مراحل سفرنا ، وذلك بأن نأتي مثلا الى الآبار عند انبثاق الفجر ، حذراً من الأعراب الذين يأتون اليها عند طلوع الشمس ، فيتأذى المسافرون .

وقد رأيت في مشهد الرحبة ، أجمل فتاة وقع نظري عليها في حياتي ، كان ذلك حينما أعطيت اعرابياً قرشاً ليشتري لي به خبزاً . وبذهابي لرؤية ما اذا كان قد خبز ، وجدت الفتاة تضعه في التنور . ولأنها كانت وحيدة في الدار أومأت الي بان أتراجع . وقد رأيت هناك أيضاً مهراً من صنف غريب دفع عليه باشا دمشق ثلاثة آلاف كراون .

وبوصولنا الى الطيبة ، لم ندخلها ، بل نزلنا خارجها تحت

مسور . ولم يدخلها غير أعرابينا ليجلب التبن لجمالنا . وجاء
اليه حاكم المدينة وطلب عشرين قرشا عن كل منا ، وهي ضريبة
قال انها يجب ان تدفع له . ولما كنا نعلم ان الرسم لا يتعدى
اربعة قروش ، رفضنا دفع غيرها . ولكن الاعرابي الذي
دبر حيلة على الاسباني ، غمزني بعينه ألا أضطرب . ثم عاد
الحاكم الى البلدة ورجع الينا ثانية ومعه سلسلة حديد ، وأكد لنا
انه سيأخذ الاسباني الى القلعة مكبلا ، ما لم يدفع العشرين قرشا . أما
أنا ، فقد طلب الي دفع اربعة قروش حسب المعتاد .

وعند اقترابنا من حلب ، كان أول ما يجاور البادية ، الاعراب
والبدو ، وثاني هذه البيوت كان دار صديق لدليلنا ، فسلمت حصاني
الى الدليل الذي ابتاعه مني بالحاحه الشديد ثم اني كنت قد قررت أن
اذهب ماشياً الى حلب تخلصاً من دفع الكمرك على رزمة فيروز كانت
عندي ، وضعتها في أكياس كانت خلف حصاني ، ورميت الأكياس
الصغيرة في حقيبة كأنها اشياء لا خطر لها . وطلبت من صاحب البيت
ان يحفظها يوماً او يومين . فقال لي الاعرابي انها حتى إن كانت كلها
ذهباً فلا خوف عليها . وفي الواقع ، لما بعثت بطلبها بعد يوم أو يومين
لم أر واحدة مفقودة .

(ملاحظة : بهذا ينتهي حديث تافرنييه في رحلته العراقية) .

الملحق رقم (١)

(راجع الصفحة ٢٣ ، الحاشية ١)

قد يكون هذا القصر الكبير الذي اكتشفه تافرنييه « خان العطشان » وهو بناء قديم ، ترى اطلاله ورسومه في البادية ، غربي الفرات ، على نحو من ثلاثين كيلومتراً من جنوب غربي كربلا . وهو - على حد وصف رحالتنا - مبني بالآجر ، ومازالت كثير من جدرانه واقواسه وبعض عقاداته ترى الى يومنا هذا ، وان كانت قد تشعثت وتصدعت . والذي نميل اليه ، ان لهذا البناء صلة بالموقدة (الموجدة) وهو منار يبعد عنه مسيرة ساعتين الى الشمال الغربي . ان هذه المباني التي ترى بقاياها منثورة في طف البادية ، كانت فيما مضى مسالح ومعاقل وحصوناً ومناور الدولة الفارسية تقيها شر هجمات دولة الروم . وقد وصفت الآنسة جرترود بل خان العطشان ، وصفاً اثرياً دقيقاً في كتابها الموسوم : G . L . Bell : Palace and Mosque at Ukhaidir (Oxford , 1914; pp . 41 - 43) وعنيت بتخطيط البناء وتصوير بقاياه في اللوحات ٤٦ - ٥٢ من الكتاب المذكور . أما أصل البناء وتاريخه فلم تتطرق المؤلفة الى ذكرها .

الملحق رقم (٢)

(راجع الصفحة ٢٥ ، الحاشية ١)

قال الشيخ جعفر آل محبوبة في كتابه « ماضي النجف وحاضرها » (ص ١٢٩)ان الشاه عباس الاول لما جاء الى النجف لزيارة امير المؤمنين (ع) سنة ١٠٣٢ « أمر بتنظيف النهر الذي حفره الشاه اسماعيل ، فحفر وعمر وجرى الماء فيه حتى دخل مسجد الكوفة كما في المنتظم الناصري

ج ٢ ص ١٧٧ . وهذا النهر كان في ارض سهلة لا تعلو كثيراً ، حتى انتهى الى الكوفة فجاء الحفر كما اراد ، وهو المعروف اليوم (بنهر المكرية) وليس هو الا تلولا وآ كاما وآثار مساجد ، درسها ما انهال عليها من الرمال ولما لم يكن بالامكان وصول الماء الى النجف في نهر مكشوف من الكوفة ، بنيت قناة اخرى غير قناة نهر التاجية وغير قناة نهر الشاه . موقع هذه القناة شرقي بلدة النجف ، وهي التي تسمى بقناة الفرع كما عن البراقي . وقد انضم جميع عسكره الى العملة وبذلوا تمام الهمة والجهد لهذه الخدمة حتى اكملوه وبنوه احسن بناء وجعلوا له مجرى الى الروضة المقدسة وصنعوا له بركة ينزلون فيها ويستقون » .

وللوقوف على التفاصيل الوافية في مياه النجف ، راجع :

١ - كتاب ماضي النجف وحاضرها (ص ١٢٢ - ١٤١)

٢ - الماء في النجف (لغة العرب ٢ [١٩١٣] ص ٤٥٧ — ٤٦٢)

٣ - ماء النجف في القرون الاخيرة ونهر الهندية : ليعقوب سركيس (الاعتدال ٤ [النجف ١٩٣٦ — ١٩٣٧] ص ١٠٠ - ١٠٤ ، ١٦٣ - ١٦٩) .

الملحق رقم (٣)

(راجع الصفحة ٢٩ ، الحاشية ١)

الطويلات ، واحدتها الطويلة (وبالافرنجية Larin) ضرب من النقود المعدنية ، كان متخذاً في بعض الانحاء من شرقي جزيرة العرب ، كالاحساء والقطيف وغيرها . وقد بطل استعمال هذه النقود . ولتافرنييه كلام عليها في حديث رحلته . وللوقوف على وصفها وقيمتها ، راجع :

Palgrave : Narrative of a Year's Journey through

Central and Eastern Arabia, 1862 - 63 (Vol . 2, London , 1866; pp. 179 - 180) .

Cheesman : Unknown Arabia (London , 1926 ;pp 102 - 103)

ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة « طوبلة » للمستشرق ألان

(j . Allan)

الملحق رقم (٤)

(راجع الصفحة ٣٩ الحاشية ٢)

هي جزيرة كريت ، التي عرفت عند العرب الاقدمين باسم « أقريطش » أما « كاندي » فمشتقة من لفظة عربية ، أصلها « الخندق » (Khandax) وهي عاصمة الجزيرة كانت جزيرة كريت من جملة المواطن التي وفق العرب لفتحها ، بعد ان توالت عليها غزواتهم البحرية منذ زمن معاوية سنة ٥٤ هـ ، ثم في زمن الوليد ، والرشيد ، والمأمون حيث تم فتحها في زمنه سنة ٢١٠ هـ على يد أبي حفص عمر بن عيسى الاندلسي المعروف بالاقريطشي . ولكن الروايات مختلفة في زمن فتحها ، فقيل انها فتحت سنة ٢٥٠ هـ ، وقيل قبلها ، وقيل بعدها . وكانت كريت لما احتلها العرب قسماً من الانبراطورية البزنطية ، فبنوا فيها مدينة دعوها « الخندق » . وقد ظلت جزيرة كريت بيد العرب زهاء مائة سنة ، حيث استعادها منهم البزنطيون سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) بعد محاولات عديدة .

الملحق رقم (٥)

(راجع الصفحة ٤٥ الحاشية ٢)

الملوك الذي حكموا هذه البقعة مما بين النهرين ، وعرفوا باسم أبجر ، يبلغون ٢٩ ملكا ، كانت عاصمتهم أدسا (وتعرف باسم الرها ، ثم اورفا) . ودام حكم هؤلاء الاباجرة خلال القرن الاول قبل الميلاد والقرن الاول بعده . ووفقاً للمرويات القديمة ، فان أحد هؤلاء الملوك ، ولعله أبجر الخامس المعروف باسم « اوكاما » أي الاسود ، كان قد اصيب بالبرص ، فبعث برسالة الى يسوع ، معترفاً بآلوهيته ، ملتمساً مساعدته ، طالباً اليه المجيء الى بلاده . ولكن يسوع كتب اليه كتابا تمنع فيه من الذهاب اليه ، ووعده بانه بعد صعوده الى السماء يبعث اليه بأحد حوارييه . وقد روى المؤرخ اسابيوس القيصري في تاريخه الكنسي (١ : ١٣) ان ذلك قد تم بالفعل ، فان يهوذا بن تداوس ، ارسل الى ذلك الملك سنة ٢٩ للميلاد . اما الرسائل المتبادلة بين المسيح وابجر ، وما دار حولها من حكايات ، فقد نشرت بنصها السرياني ، وترجمتها العربية في ديار الغرب

الملحق رقم (٦)

(راجع الصفحة ٥٢ الحاشية ١)

سائح ايطالي ، يعد في طليعة الرحالين الاوربيين الى بلدان الشرق ولد سنة ١٥٨٦ م ، وساح سياحة واسعة استغرقت خمس سنين (١٦١٦ — ١٦٢١ م) زار خلالها بلاد اشور وبابل وفارس والاصقاع المجاورة ، وألم ببعض اللغات الشرقية . وكان في طوافه في ارض العراق ، عني عناية خاصة

بفحص اخربة كثير من المدن القديمة ، كبابل وأور وغيرها . كما انه في تجوله في ايران فحص بقايا تخت جمشيد ونقش رستم وبرسبوليس ولم يكن دلا فاله سائحاً فحسب ، بل كان عالماً أثرياً ، واقفاً على ما ورد بصدد الآثار الشرقية في التوراة وفي المراجع الاغريقية . وهو اول من نقل الى اوربة صفائح الآجر المنقوش عليها بالخط المسماري ، وجعل لها شهرة بين الاوربيين ، مع كونه لم يفقه شيئاً منها . ان حديث تنقلاته في الشرق أودعه في رسائل بالايطالية بعث بها الى صديقه شيپانو (Mario Schipano) أستاذ الطب في نابولي . وقد طبع بعدئذ في مجلدين ، بعنوان :

Viaggi di Pietro della Valle il Pellegrino da lui Medesimo in Lettere Familiari.

وقد ظهرت طبعتها الاولى سنة ١٦٥٠م، ثم طبعت طبعة حسنة سنة ١٨٤٥ في مجلدين. ان هذه الرحلة نقلت بكاملها الى الفرنسية وطبعت سنة ١٦٦١-١٦٦٣. ونقل ما يخص بلاد الهند الى الانكليزية ، وطبع سنة ١٦٦٥ م . ونقل المطران جرجس دلال (مطران الموصل الحالي) ، بعض ما يخص بلاد العراق الى العربية ، وطبعه في « نشرة الاحد » التي كانت تصدر في بغداد (المجلد الاول الصادر سنة ١٩٢٢)

وكان دلافاله حين اقامته ببغداد ، قد تزوج بنصرانية كلدانية اسمها « معاني » أصلها من ماردين . وقد رافقته في رحلته الى بلاد فارس ، وتوفيت سنة ١٦٢١ م ونقل دلافاله رفاتها معه الى رومة ودفنها هناك . وكان قد رثاها ، ونشر هذا الرثاء في حياته في البندقية سنة ١٦٢٧ م

وكانت وفاة دلافاله سنة ١٦٥٢

الملحق رقم (٧)

(راجع الصفحة ٥٨ الحاشية ١)

لعل المؤلف أراد بها « قنطرة أسكي موصل » التي يرى منها اليوم طاق واحد قائم على وادي المر ، على نحو ميلين من غرب قرية اسكي موصل ، وهذه تبعد نحو ٤٠ كيلو متراً من شمال غربي مدينة الموصل ، وتقع على ضفة دجلة اليمنى . ويجاور هذه القرية خرائب مدينة كبيرة لا يزال في طرفها الشمالي خان مربع يقوم على تل يبطن بقايا مدينة واغلة في القدم

وقد تفضل الاستاذ فؤاد سفر، بالنبذة التالية ، قال: « اقدم ما انتهى الينا من أخبارها يرتقي الى ما قبل الالف الرابع قبل الميلاد . (راجع مجلة Iraq, Vol. 5, 1938, P. 134) وورد في مدونات الملك الاشوري سنحاريب: تقع مدينة بلط في البقعة القريبة من نينوى ، وفيها تكثر حجارة الحلان والمرمر (راجع كتاب :

Meissner: Bab. u. Assyr. Vol. 1, P. 349)

ويقول سدني سمث ان بلط تقع على نحو سبعة فراسخ من نينوى وان اسمها الحديث اسكي موصل (راجع :

Cambridge Ancient History, Vol III, p. 76.)

وحرف اسم بلط في العصر الاسلامي ، فعرفت باسم « بلد » التي كانت لا تزال عامرة آنئذ فقد ذكر ياقوت وهو من اهل القرن السابع للهجرة (معجم البلدان ١ : ٧١٥ طبعة وستنفلد) : ان « بلد ، وربما قيل لها بلط ، بالطاء ،... مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ ... »

« ولقد عثر داخل الاقبية على عدد من المسكوكات الاتابكية تعود

احداها الى قطب الدين مودود . ولعلنا نستطيع اعتماداً على هذه المسكوكات ان نعتبر الاقبية المديدة والسور الذي من حولها من المنشآت الاتابكية »
انتهى كلام الاستاذ سفر .

اما الطاق القائم اليوم ، فربما كان الطاق الاكبر في هذه القنطرة التي زالت معالمها ، ويبلغ ارتفاعه الحالي ١٢ متراً فوق مستوى ماء الوادي في الربيع (في موسم الفيضان) . وعرض فتحة الطاق ، بحسب مستوى الارض الحالي ٥٠ر٢٢ متراً . اما الطاق فبني بالحجارة الكبيرة المهندمة وعلى بعضها حروف يحتمل ان تكون يونانية . وفي وجه الطاق كتابة عربية منقورة هذا نصها « عمل ح . . بن محمد الجزري رحمه الله » . ويرجح انها كتبت بعد انشاء القنطرة بزمن .

وقنطرة اسكي موصل ، تذكرنا بقنطرة اخرى تعرف اليوم باسم « جسر كسك كوبري » المقام فوق ماء الكسك الآتي من « ابو مارية » الذي يصب في دجلة عند قرية اسكي موصل ، وتبعد هذه القنطرة نحو ٤٥ كيلو متراً عن الموصل ولم يبق منها غير طاقين وبقايا ثالث .

فلعل المؤلف مر بهذه القنطرة او بتلك .

الملحق رقم (٨)

(راجع الصفحة ٥٨ الحاشية ٢ و ٥)

هذا ما كان من امر الموصل في ايام تافرنييه ، وهي حال لا تدل الا على ما بلغته هذه المدينة من تأخر في ذلك العصر . وبهذه المناسبة ، يجدر بنا ان نذكر هنا نبذاً من اقوال بعض الكتبة والبلدانيين من العرب الاقدمين ، ليقارن القارىء بين ما كانت عليه في ايام اولئك ، وما صارت اليه في ايام تافرنييه .

قال ابن حوقل (وهو من ابناء المائة الرابعة للهجرة) في وصف مدينة

الموصل (راجع : كتاب صورة الارض لابن حوقل ، ص ٢١٤ — ٢١٥ طبعة كريمرز) : « واما الموصل ، فمدينة على غربي دجلة ، صحيحة التربة والهواء .... ولما ملك بنو حمدان ورجالهم غرسوا فيها الاشجار وكثرت الكروم وغزرت الفواكه وغرست النخيل والخضر.... ان للموصل اضعاف أعمال نصيبين في فسحة الاعمال وكثرة الضياع وعظم المحل وغزر السكان واهل الاسواق ، اذ كانت اسواقها واسعة واحوالها في الشرف والفخم ظاهرة ... وكان بها كل جنس من الاسواق الاثنان والاربعة والثلاثة مما يكون في السوق المائة حانوت وز اند . وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات ما دعت اليها سكان البلاد النائية فقطنوها ...» .

وقال البشاري المقدسي (وكان حياً سنة ٣٧٥ هـ) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (ص ١٣٨ طبعة دي غويه) في عرض كلامه على الموصل انها « بلد جليل ، حسن البناء ، طيب الهواء ، صحيح الماء ، كبير الاسم ، قديم الرسم ، حسن الاسواق والفنادق . . . . وله منازه وخصائص وثمار حسنة وحمامات سرية ودور بهية » .

ومن طريف ما ورد في وصف الموصل ، ما ذكره الرحالة الشهير ابن جبير (المتوفى سنة ٦١٤ هـ) قال (ص ٢٣٥ من طبعة دي غويه) : « وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، واحدث فيه بعض امراء البلدة ، وكان يعرف بمجاهد الدين ، جامعاً على شط دجلة ، ما ارى وضع جامع احفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الآجر . واما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد اشرف منها ولا أحسن ، ووصفه يطول وانما وقع الالماع بالبعض جريا الى الاختصار .

وامامه مارستان حفيل من بناه مجاهد الدين المذكور . وبنى ايضاً داخل البلد وفي سوقه قيسارية للتجار كانها الخان المعظم تتغلق عليها ابواب حديد ونطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلي ذلك كله في اعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له ، فما ارى في البلاد قيسـارية تعدلها . وللمدينة جامعان احدهما جديد والآخر من عهد بني أمية . . . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كانها القصور المشرفة ، ولها مارستانات حاشا لذي ذكرنا في الربض . . » .

ووصفها ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ﻫ) في « معجم البلدان (٤ : ٦٨٢ـ ٦٨٤ طبعة وستنفلد) بقوله انها « المدينة المشهورة العظيمة ، احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظير كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة ... فاما ابنيتهم فهي حسنة جيدة وثيقة بهية المنظر ، لانها تبنى بالنورة والرخام . . . ولا يكاد يستعملون الخشب في سقوفهم » .

واشار القزويني (المتوفى سـنة ٦٨٢ ﻫ) الى مدينة الموصل بقوله (آثار البلاد واخبار العباد . ص ٣٠٩ طبعة وستنفلد) « بها أبنية حسنة وقصور طيبة على طرف دجلة » .

وفي تقويم البلدان (ص ٢٨٥ من طبعة باريس) لابي الفداء وصف موجز للموصل ورد فيه قوله « ... ولها سوران قد خرب بعضهما ، وسورها اكبر من سور دمشق ، والعامر في زماننا نحو ثلثيها ، ولها قلعة من جملة الخراب » .

وممن زار هذه المدينة من رحالي العرب ، ابن بطوطة (المتوفى سنة ٧٧٧ ﻫ) فوصفها بقوله (تحفة النظار ٢ : ١٣٤ — ١٣٥ طبعة باريس) انها « مدينة عتيقة كثيرة الخصب ، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان

وقد فصل بينهما و بين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله . وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ، ابراجهما كثيرة متقاربة . وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره ، وقد تمكن فتحها فيه لسعته . ولم أر في أســوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند » .

فاذا انتقلنا الى الرحالين الغربيين الذين زاروا الموصل ، بعد ابن بطوطــة ، وجدنا في طليعتهم الرحالة راولف (Rawolf) الانكليزي المتوفي سنة ١٥٩٦ م فقد وصفها بقوله :

« دخلنا مدينة الموصل بعد ان عبرنا فوق جسر من القوارب . . . . تقع الموصل في بلاد الـكرد ... وهي كسائر البقاع المجاورة تابعة للانبراطور التركي وفيها بعض المباني الفخمة والشوارع الحسنة . وهي واسعة نوعا ما ، الا ان أسوارها وخنادقها ليست على ما يرام على ما لاح لي من أعلى مقامنا ... »

(راجع : Rawolf: Travels, Ray's Collection, p. 204)

* * *

سور الموصل :

يحدثنا التاريخ ان للموصل سوراً مكيناً يحيط بها ويمنع عنها هجمات العــدو ، وان هذا السور جدد غير مرة ، كانت الاخيرة سنة ١١٥٦ م (١٧٤٣ م) ولـكن هذا السور الذي كان يبلغ طوله نحواً من عشرة آلاف متر ، قد أمحى أثره اليوم أو كاد ، ولم يبق منه الا قطع صغيرة . لقد كان هذا السور محفوفاً من خارجه بخندق عميق يستمد ماءه من دجلة عند اقتضاء الحال . وكان لسور الموصل عدة أبراج ، وأحد عشر باباً لـكل

منها اسم يعرف به . واذ كانت هذه الابواب قد ذهب أمرها بذهاب السور ذاته ، رأينا من المفيد ان نذكر فيما يلي أسماءها حفظاً للتاريخ :

باب الجسر . باب القلعة . الباب الصغير . الباب العمادي (ويقال له باب الوباء) . باب سنجار . باب البيض . باب العراق . الباب الجديد . باب لكش . باب السراي . باب الطوب .

ان الابواب الثلاثة الاولى كانت تطل على دجلة . والبقية على البر

الملحق (رقم ٩)

(راجع الصفحة ٦١ ، الحاشية ١)

يريد به « تل النبي يونس » وقد عرف في المراجع العربية بتل توبة . راجع : معجم البلدان (مادة : تل توبة) ، والكامل في التاريخ لابن الاثير (٨ : ٤٣٨ و ٤٣٩ ، ٩ : ٤٠٣ ، ١١ : ٧ طبعة ترنبرغ) ، ورحلة ابن جبير (ص ٣٦ طبعة دي غويه) وقد سماه ابن بطوطة في رحلته (٢ ١٣٦ طبع باريس) بتل يونس .

أما « المسجد » فقد مرت به اطوار تاريخية جديرة بالذكر . فبقعته في الازمنة التي سبقت الميلاد كانت « معبداً اشورياً » تعبد فيه الاصنام . وبانتشار النصرانية في بلاد العراق ، صار ذلك المعبد « ديراً » عظيماً ، تسميه المراجع العربية « باسم « ديربونان » او « دير يونس » وبانتشار الاسلام في العراق صار ذلك الدير جامعاً باسم « جامع النبي يونس » .

الملحق رقم (١٠)

(راجع الصفحة ٦١ الحاشية ٢)

هذا هو دير مار جبرائيل (كبرييل) المعروف في المصادر العربية بالدير

الاعلى ، وهو من أشهر الديارات النصرانية وأعظمها شأناً وصفه الشابشتي بقوله انه « دير بالموصل ، يطل على دجلة ، وهو كبير عامر . فيه قلايات كبيرة لرهبانه ، وله درجة منقورة في الجبل يفضي الى دجلة نحو المائة مرقاة وعليها يستقى الماء من دجلة » وزاد ياقوت (معجم البلدان ، مادة : الدير الاعلى) على وصف الشابشتي قوله انه « يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف ويقال انه ليس للنصارى دير مثله ، لما فيه من اناجيلهم ومتعبداتهم » .

ولكن ذلك الدير العظيم ، قد تهدم بمرور الزمن ، ولا يرى منه اليوم الا معالم ضئيلة لا يستدل منها على ماضيه . ان أخربته تقع على دجلة في اعلى الموصل ، عند « باش طابيه » . ويؤخذ من كلام تافرنييه ان آثار هذا الدير كانت اكثر وضوحا في ايامه مما هي عليه الآن .

الملحق رقم (١١)

(راجع الصفحة ٦٣ ، الحاشية ١)

يسمى أيضاً الزاب الاعلى في زماننا . ولهذا النهر تسميات قديمة متعددة فقد ذكر ايتزورث (W. F. Ainsworth) في تعليقاته الجغرافية على كتاب زينفون :

(Xenophon : Anabasis. London, 1872; p. 348)

« ان هذا النهر عرف قديماً باسم: زاباتُس ، او زاباَتس وعرف عند الارميين واليهود باسم زراب ، ثم تصحفت هذه التسمية الى زرب وزاب . وعرف ايضاً باسم ليكس (Lycus) عند هيرودتس وبوليبيوس وسترابون وبطليموس . وسماه اميانس مرشليتس باسم ديابا » .

الملحق رقم (١٢)

(راجع الصفحة ٧٠ ، الحاشية ١)

يريد تافرنييه بهذه « الحمام الحارة » ، « حمام علي » التي يسميها بعضهم اليوم حمام العليل وقد سبقه غير واحد من رحالي العرب الاقدمين وبلدانييهم الى وصف هذه الحمام . قال ياقوت الحموي (معجم البلدان ٢ : ٣٢٩) : « حمام علي : باصطلاح اهل الموصل وهي بين الموصل وجهينة ، قرب عين القار ، غربي دجلة . وهي عين ماؤها حار ، كبريتية . يقول اهل الموصل ان بها منافع ، والله أعلم » . ولحمام علي أخبار اخرى كثيرة تقف عليها في مقال لاحدنا ، كوركيس عواد ، في مجلة « الاخبار » الاسبوعية (العدد ٥ [بغداد ١٠ ايلول ١٩٣٨] ص ١٩ — ٢٠ و ٣١) بعنوان « حمام علي في المصادر القديمة » . وتتألف هذه الحمام من عدة عيون معدنية اهمها ثلاث وهي : العين الكبيرة ، وعين زهرة ، وعين فصوصة . وكلها ذات مياه كبريتية حارة تنبط عند الشاطيء الايمن من نهر دجلة ، على مسافة ١٦ ميلا جنوبي الموصل ويقصدها الناس سنويا في الصيف طلباً للاستشفاء .

الملحق رقم (١٣)

(راجع الصفحة ٧١ ، الحاشية ١)

يعرف هذا السد عند أهالي الموصل ، باسم « العوّاية » لان الماء عند اجتيازه بآثار هذا السد يكون له صخب وزمجرة كأنه يعوي . وقد وصف هذا السد الرحالة الاثري ريج في كتابه :

C. J. Rich: Narrative of a Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh. (Vol. 2, London, 1836; p. 129).

ومما ذكره في وصفه : « ان صوت الماء بلغ مسامعنا قبل بلوغنا المكان بمسافة بعيدة . ومع انه لا يرى شيء من هذا السد فوق سطح الماء ، فان الماء فوقه يهيج ويفور ويتدافع . اما الممر الذي يسلك فضيق ، وهو الذي بين السد وبين الضفة الشرقية . ان السد يخترق النهر . ويقول الاهلون انه في اواخر الصيف واوائل الخريف ، يمكن رؤية نحو قدم من هذا السد فوق سطح الماء . ومن ملاحظة هذا القسم الظاهر يعلم انه شيد بالحجارة المنحوتة المتلاحمة بالكلس » .

الملحق رقم (١٤)

(راجع الصفحة ٧٣ ، الحاشية ٢)

وصف ابن جبير هذه العيون في رحلته (ص ٢٣٣ طبعة دي غويه) بقوله : « ... سرنا بموضع يعرف بالقيارة ، بمقربة من دجلة ، بالجانب الشرقي منها . وعن يمين الطريق الى الموصل، فيه وهدة من الارض سوداء كأنها سحابة ، وقد انبط الله فيها عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان . ويصنع له احواض يجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال منبسط على الارض اسود املس صقيلا رطبا عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع باول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه الى جوانبها فيرسب قارا ، فشاهدنا عجبا كنا نسمع به فنستغرب سماعه » .

وزار ابن بطوطة هذه العيون فوصفها في رحلته (٢ : ١٣٣ طبعة باريس) بما لا يخرج عن وصف ابن جبير لها ، فاكتفينا بالاشارة .

الملحق رقم (١٥)

(راجع الصفحة ٧٤ الحاشية ٢)

الدور : بضم الدال ، قرية على ضفة دجلة اليسرى ، بين تكريت وسامراء ، تقوم فوق مكان قديم ، وتحيط بها خرائب قديمة يحتمل انها من العصر الاسلامي بالقرب منها قبة لمرقد الامام محمد الدوري ، ويصحفه العوام الى « محمد الدر » . وفي كتاب « جامع الانوار » للبندنيجي ان هذا الشيخ ينتهي نسبه الى الامام موسى الكاظم . توفي في قرية الدور . وفي التاج انه مات قبل الثلثمائة واما المحل المدفون فيه محمد الدوري ، فعبارة عن بهو مربع الاركان يبلغ طول كل ركن قرابة ثلاثين متراً ، وفي وسطه قبة معقودة بالجص والآجر القديم مخروطية الشكل من الاعلى ، ومربعة الاركان من الاسفل ، يبلغ طول كل ركن منها نحو ٢٠ متراً وهي تشبه قبة الست زبيدة ببغداد . ويزور اهل الدور هذا الامام في عصر كل خميس ويطلبون منه حاجاتهم وينذرون له له النذور . وفي بلدة الدور خمسة مساجد وهي : « الجامع الكبير » ويقال انه من ابنية عمر بن عبد العزيز ، ولا اثر هناك لكتابة تؤيد هذا الرأي ثم « جامع السادة » ، « ومسجد الشويخات » وهو قديم لا يعرف بانيه . و « مسجد المواشط » وهو خرب ، « وجامع البو حيدر » وهو قديم البناء لا يعرف من عمره ، وقد خرب . وأبنية هذه البلدة بالحجارة والجص .

وقد ذكر الدور اميانس مرشليدس في كلامه على تراجع جوفيان .

وعن يمين باب الجامع رخامة فيها كتابة مؤلفة من سبعة اسطر هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا المسجد المبارك تربة الامام ابو [كذا]

عبد الله محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين وهو موضع . . . رحم الله من زاره واسعده ... » .

وفي الوسط من الاسفل قوله « لله الملك » .

هذا ما قرأه هر تسفلدوساره . وتقول المس بل انها قرأت في آخرها تاريخ اللوحة وهو سنة ٨٧١ للهجرة (١٤٦٦ م) . وقد كان هذا التاريخ مغطى بقشرة من الجص فخفي على العالمين المذكورين .

راجع بهذا الصدد :

كاظم الدجيلي (لغة العرب ١ [١٩١١] ص ٤٧٠ — ٤٧٩)

Sarre u. Herzfeld: Arch aologische Reise im Euphrat-und Tigris-Gebiet (Vol. 1, 1911, pp. 30-34, 231_234)

Bell: Amurath to Amurath (1911, pp. 214-216)

الملحق رقم (١٦)

(راجع الصفحة ٧٥ ، الحاشية ١ و ٢ ثم ص ٧٦ الحاشية ١)

هذ البرج هو المنارة « الملوية » . ولما كان وصف رحالتنا لها لا يخلو من اوهام، رأينا ان نذكرهنا ما يجب معرفته بصددها ، مقتبسين ذلك من كتاب « سامراء » الذي طبعته مديرية الآثار القديمة بالعراق (بغداد ١٩٤٠ ؛ ص ٤٣ — ٤٥) :

الملوية مئذنة مخروطية الشكل ، تستند الى قاعدة مربعة ، يصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حولها ، من خارجها ، دوران الحلزون ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً ، غير ان قطار القمة يصبح ٦ أمتار .

أما مجموع ارتفاع المئذنة عن سطح الارض فيبلغ ٥٢ متراً .

وهـذه المئذنة خارج أخربة المسجد الجامع ، على بعـد ٢٥ متراً من ضلعه الشمالي . لقد صانت مديرية الآثار ، سنة ١٩٣٧ ، ما أصاب هذه المنارة من تخريبات على مدى العصور ، فاظهرت اسس القاعدة ، وأعادت بناءها وعمرت اللوالب ، كما اعادت المرقاة الى حالتها السابقة وفي سنة ١٩٤٠ اكملت تعمير القسم الاعلى من اللوالب . بانشاء غرفة مستديرة صغيرة بعض معالمها كانت لا تزال باقية مع الدرج المؤدي اليها وصار الصعود الى اعلى المئذنة متيسراً الآن . اما خرائب سامراء القديمة ، فتمتد بمحاذاة دجلة الى مسافات بعيدة ، تبلغ في مجموعها ٣٤ كيلو متراً . ولا يزال ماثلا للعيان منها : الملوية ، وسور المسجد الجامع ، وقسم من بيت الخليفة ، وجامع ابي دلف وغير ذلك . وقد اهتمت مديرية الآثار القديمة بتعمير هذه المخلفات وصيانتها من البلى والاندراس .

الملحق رقم (١٧)

(راجع الصفحة ٧٨ ، الحاشية ١)

تضاربت آراء كتبة العرب الاقدمين في معنى اسم بغداد . وها نحن اولاء نلخص فيما يلي اهم تلك الآراء :

١ — ان معناها بستان رجل . فباغ = بستان ، وداد اسم رجل (راجع معجم البلدان ١ : ٦٧٧ مادة بغداد)

٢ — وبعضهم قال : بغ اسم صنم ، فذُكر انه اهدي الى كسرى خصي من المشرق فأقطعه اياها ، وكان الخصي من عباد الاصنام ببلده ، فقال : بغ دادي ، أي الصنم اعطاني (المعرب للجواليقي ، ص ٧٣ بتحقيق احمد محمد شاكر ، ومعجم البلدان ، مادة بغداد) .

٣ وقيل بغ هو البستان ، وداد أعطى . وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان ، فقال بغ داد ، فسميت به . (معجم البلدان) والظاهر ان تافرنييه أشار في كلامه اعلاه الى هذا الرأي .

٤ - وقال حمزة بن الحسن : بغداد اسم فارسي معرب عن باغ داذويه ، لان بعض رقعة مدينة المنصور كان باغاً (= بستاناً) لرجل من الفرس اسمه داذويه (معجم البلدان)

٥ وقيل ان بغداد كانت من قبل سوقاً يقصدها تجار اهل الصين بتجاراتهم ، فيربحون الربح الواسع ، وكان اسم ملك الصين بغ ، فكانوا اذا انصرفوا الى بلادهم قالوا : بغ داد ، اي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك (معجم البلدان)

٦ — ونقل ابن الجوزي (مناقب بغداد ص ٦) قول عبدالله بن المبارك في بغداد : « ان بغ شيطان ، وداذ عطيته »

فهذه التعليلات تستند في جميعها الى اللغة الفارسية .

ويرى بعض المعاصرين (راجع : يوسف غنيمة (لغة العرب ٤ [١٩٢٦—٢٧] ص ٨٢) ، والمطران نوري (رحلة الى الهند . حريصا ١٩٣٤ ، ص ٤) ، وفؤاد افرام البستاني (المشرق ٣٢ ، [١٩٣٤] ص ٦٨) ان لفظة « بغداد » من اصل آرامي فهي مؤلفة من كلمتين : « ب » المقتضبة من كلمة ، « بيت » عند الارميين و « كداد » : « القطيع » او « الغنم » فيكون مفادها « بيت القطيع » أو « الحظيرة »

ويلاحظ ان بغداد وردت في المصادر القديمة باشكال مختلفة ، فقيل بغداد ، وبغداذ ، وبغدان ، ومغداد ، ومغداذ ، ومغدان . كما انها سميت « مدينة السلام » و « الزوراء » .

وقد افادنا الاستاذ طه باقر ، أمين المتحف العراقي ، بالنبذة التالية

بصدد بغداد : ندونها فيما يلي شاكرين له فضله

« ورد اسم بغداد في المصادر المسمارية بهيئة بغدادا (بكدادا) أو بغدادو (بكدادو) . غير ان المقطع (بغ) يقرأه بعض المستشرقين (خو) ، فتكون القراءة (خودادو) ، وهذا بعيد ، لان مقطع (خو) يعبر عن الصوتين (بغ) و (خو) ، وليس للصوت الاول مقطع خاص به .

« اما الوثائق التي وردت فيها هذه التسمية فهي :

١ حجر حدود من زمن الملك الكشي (نازي ماراتاش) ، حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورد فيه ذكر مدينة باسم (بلادي) على شاطيء نهر (شاري) أي نهر الملك في مقاطعة (بكدادي)

٢ — حجر حدود تعرف بـ (حجر ميشو) ، اشتراها في سنة ١٧٨٠ م طبيب اوربي ، وهي ترتقي الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

٣ حجر حدود من زمن الملك الكشي (مردوخ بلادان الاول) في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ورد فيه ذكر مواضع في مقاطعة (بكدادي) .

٤ — رقيم طيني، عثرعليه في نينوى، يرتقي الى القرن السابع قبل الميلاد .

« ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد ، فقدت بغداد اهميتها ، واصبح يشار اليها في المصادر الاشورية بانها مستوطن قبائل ارمية » . انتهى كلام الاستاذ طه باقر .

الملحق رقم (١٨)

(راجع الصفحة ٧٨ ، الحاشية ٢)

كانت لبغداد سور محكم البناء يقيها هجمات الاعداء . وقد ظل قائماً

حتى سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . فبديء بهدمه في تلك السنة بأمر مدحت باشا ، حينما اراد توسيع بغداد وتعميرها فتهافت الناس على قلعه والانتفاع بآجره ، وكان في هذا السور ، خمسة ابواب ، احدها مطل على النهر ، عند الجسر وليس له أثر الآن والاربعة الاخرى تطل على البر ، وهي : باب المعظم (هدم سنة ١٩٢٢) ، والباب الوسطاني ، وباب الطلسم (نسف سنة ١٩١٧) والباب الشرقي (هدمت بقاياه سنة ١٩٣٧) ولم يبق اليوم من هذه الابواب ، الا الباب الوسطاني ، فقد عنيت مديرية الآثار القديمة ، سنة ١٩٣٨ ، بصيانته ، ثم اتخذت منه متحفاً للاسلحة القديمة .

الملحق رقم (١٩)

(راجع الصفحة ٨٦ ، الحاشية ٢)

عقرقوف

كلام المؤلف على عقرقوف بحاجة الى تعليق من وجوه مختلفة . ولما كان هذا الموقع قد نقب فيه في السنوات الاخيرة (١٩٤٢ - ١٩٤٣) رأينا ان نستقي بعض المعلومات عن هذا الموضع من الاستاذ طه باقر الذي اشرف على اعمال التنقيب هناك ، فزودنا بما هذه خلاصته :

يقع عقرقوف في المنخفض المعروف باسمه ، على ٣٠ ميلا غربي بغداد في خط العرض الشمالي ٢١َ ٣٣ْ ، وخط الطول الشرقي ٢١َ ٤٤ْ .

وقد ذكر كثير من الرحالين اسم عقرقوف منذ القرن السادس عشر للميلاد اذ زاره غير واحد منهم ووصفوه . واختلفوا في اصله فعده بعضهم انه برج بابل . وقد ورد ذكره ايضاً في المصادر العربية القديمة ، وذهبوا في تعليل اسمه وماهية الموضع مذاهب شتى . ويرى بعض الباحثين ان اسمه

من الارمية بمعنى « خربة الاوتاد او القضبان » .

وقد اثبتت التنقيبات في هذا التل انه موضع المدينة الكشية المعروفة بدور كوريكالزو ، اي مدينة كوريكالزو . وكوريكالزو هذا ، احد ملوك ثلاثة من الكشيين عرفوا بهذا الاسم وسنرى فيما بعد أيا منهم كان مؤسس هذه المدينة ودلت التحريات الاثرية في عدة مواضع من المدينة على انها كانت عاصمة العراق في عهد السلالة الكشية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، اي منذ حوالي منتصف الدور الكشي حتى أواخر ايامها حوالي القرن الثاني عشر ق. م وقد مرت على المدينة لا سيما على قصورها ادوار تاريخية عد منها اربع طبقات رئيسية ، تنقسم كل منها الى ادوار تاريخية ثانوية ، يمثل كلا منها بعض الملوك الكشيين الذين عثر على وثائقهم المكتوبة في معابد المدينة وفي قصورها . وسكن الموقع ايضاً اقوام اخرى استوطنت فوق انقاض المدينة الكشية ، فقد عثر في بقعة قصور المدينة على قبور كثيرة دلت آثارها على انها تعود الى العصر الساساني ، وعثر على غيرها ، كالنقود من الدور الفرثي . واستوطنت فوق انقاض معابد المدينة جالية اسلامية يرجع اقدم آثارها الى دور سامراء ، أي القرن الثالث للهجرة . وكان بين اللقى الاسلامية ما يعود الى العصر الايلخاني ، كما ورد في وقفية أمين الدين مرجان حيث تذكر ناحية عقرقوف بنهر عيسى وكانت من جملة ما وقفه أمين الدين مرجان الالجايتي على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة

وزقورة عقرقوف ، أو برجها المدرّج من نوادر مابقى من الزقورات في العراق . وهي بخلاف غيرها لم ينطمر منها غير قاعدتها السفلى بالرغم من مرور ٣٤٠٠ سنة عليها . وهي عبارة عن جسم مصمت مبني باللبن لا يعرف عدد طبقاته الاصلية ولكن ما بقي من علو الزقورة الذي يرتفع عن السهل

نحو ٥٧ متراً ، يجيز لنا ان نتصور ان لها سبع طبقات . ويقرب شكل قاعدتها السفلى من المربع ، أبعادها ٦٦ × ٦٨ متراً . وتتجه اركانها الاربعة حسب العادة باتجاه الجهات الاربع والقاعدة مبنية باللبن ايضاً وجوهها مدعومة . وقد عثر في منتصف وجهها الجنوبي الشرقي على معالم درج آخر كان يرقى منه الى قمة الزقورة حيث كان في الاصل هناك معبد صغير لاله المدينة . والمألوف وجود درجين آخرين جانبيين يتصلان بالدرج الاوسط ويلتقي الثلاثة في القمة .

وبناء الزقورة غريب ، اذ يتكون من طبقات من اللبن يبلغ الموجود منها الآن ثلاثين طبقة ، وكل طبقة تتألف من ثمانية الى تسعة ساقات من اللبن وطبقة من الاسل المحبوك . وقد نجد احياناً طبقات من الحصى سمكها ٨ سنتيمترات لتسوية طبقة الاسل . وعثر ايضاً على ربطات متينة من الحبال والقصب المشبكين داخلة في البناء ، وأبعاد لبنة الزقورة تبلغ ٣٢×٣٢×٨ سم .

الملحق رقم (٢٠)

(راجع الصفحة ٩٤ الحاشية ١)

تقع أخربة طريدون على مقربة من البصرة وقد ذهب العلامة رولنصن ، نقلا عن ابيدينوس وأبايوس ، الى ان نبوخذ نصر كان قد انشأ هذه المدينة . راجع :

G. Rawlinson: The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World (Vol. III, London, 1865; P. 290).

وذكر ايضاً ان طريدون : وتسمى دريدوتيس (Diridotis) تقوم

على ساحل الخليج الفارسي ، على بعد يسير من غربي مصب الفرات . وقد كان لها مسناة او سد يحميها من طغيان المد العالي الذي يندفع من المحيط الهندي . ان تعيين موقع طريدون تعييناً اكيداً في غاية من الصعوبة ، نظراً الى عدم استقرار ساحل الخليج وتبدله تبدلا دائمياً من جهة ، والى تغير مجرى الفرات عما كان عليه في ايام نبوخذ نصر من جهة اخرى . ولعل بقاياها يمكن ان يبحث عنها في انحاء الزبير او في ما وراء ذلك من أراض .

وذهب الرحالة جسني Chesney: The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris, (vol. II, London, 1850; p. 355)

الى ان طريدون يمكن ان تكون في جبل سنام ، وهو تل عظيم قريب من نهر ابا (Pallacopas) المعروف بكري سعده . وهذه البقعة تقع على نحو ٢٣ ميلا من جنوب جنوب غربي البصرة . وعلى ١٣ أو ١٤ ميلا من غرب الزبير .

وقد ذكر بليني هذه البلدة في تاريخه الطبيعي :

The Natural History of Pliny. Translated by John Bostock and H. T. Riley. Chapter 32

بقوله انك « اذا صرت [شمالا] بطريق الماء من المقاطعات الفرثية ، انتهيت الى قرية تعرف باسم طريدون » .

أما اميانس مرشلينس المؤرخ الروماني

The Roman History of Ammianus Marcellinus. Translated by C. D. Yonge. (Book XXIII, Chap. 23)

فقد عد طريدون مدينة اشورية ، وهو يعني بابلية . راجع :

W. H. Lane: Babylonian Problems (London, 1923, p. 274-279).

الملحق رقم (٢١)

(راجع الصفحة ٩٤ ، الحاشية ٢)

لعل رحالتنا يقصد بهذه الاخربة ، بقايا مدينة البصرة القديمة ، التي اسسها عتبة بن غزوان سنة ١٦ او ١٧ هـ (= ٦٣٨ م) بامر من عمر بن الخطاب ثم تقلبت بها الحوادث وانتابتها المحن . فخربت واصبحت أطلالا وآكاما تشاهد اليوم على نحو ثمانية اميال من مدينة البصرة الحالية ، التي انتقلت اليها العمارة في المائة التاسعة للهجرة على ما يظن . فان ابن بطوطة (المتوفى سنة ٧٧٧ هـ) حينما زارها وجد كثيراً من اقسامها خالياً من السكان ، بل ان أسوارها القديمة ومساجدها كانت تبعد أحيانا عدة أميال عن المواطن المسكونة منها .

الملحق رقم (٢٢)

(راجع الصفحة ٩٦ الحاشية ٣)

جاء في كتاب « زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب حاكم البصرة » لفتح الله ابن علوان الكعبي (بغداد ١٩٢٤ ص ١٧ ١٨) ما هذا نصه في هذا الصدد : « وسبب حكومة افراسياب في البصرة على ما نقل ، انه كان كاتباً للجند المحافظ فى البصرة ، فاتفق رأي اهل البصرة على هجر الحاكم الرومي ، وكان اسمه علي باشا ، فقلت مداخله وعجز عن ارزاق الجند المحافظين معه . فباع البصرة من أفراسياب المذكور بثمانية اكياس رومية ، والكيس ثلاثة آلاف محمدية ، على ان يقطع الخطبة من اسم السلطان . فرضي بذلك افراسياب ، واشترى البصرة . وتوجه الرومي الى اسطنبول فحكم في البصرة افراسياب ، ونشر العدل ،

فحسنت ايامه وأحبته الرعية وقوي سلطانه ..... وكان ابتداء حكومته في سنة ١٠٠٥ هـ واستمرت حكومته سبع سنين . ثم حكم بعده ابنه علي باشا . . واستمرت حكومة علي باشا خمساً وأربعين سنة . ثم حكم بعده ابنه حسين باشا » .

الملحق رقم (٢٣)

(راجع الصفحة ١٠٠ ، الحاشية ٢)

ذكر مؤلف كتاب « تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية » (طبعة الخوري بطرس عزيز . بيروت ١٩٠٩ ص ١٩) في كلامه على حال النساطرة في مدينة البصرة سنة ١٦١٠ ، وهو يكاد يعاصر الرحالة تافرنييه ، قائلا : « ثم مدينة البصرة : كان يوجد فيها مطرابوليط اسمه مار شمعون ، من بيت المقدس كان تحت يده أسقف واحد اسمه مار ايليا من الموصل ، مع كهنة وشمامسة قدر الكفاية . وكان لهم ثلاث كنائس داخل البلد : الاولى على اسم مار توما الرسول . والثانية على اسم ارميحائيل . والثالثة على اسم مار هرمزد . وعدد المؤمنين كان ثلاثة آلاف بيت في سنة الف وستمائة وعشرة . وهم نساطرة ، في زمان البطريرك مار ميخا شوحايه » اه

الملحق رقم (٢٤)

(راجع الصفحة ١٠٢ الحاشية ٦)

اذا فرضنا ان العائلة تتألف من اربعة افراد ، كان نفوس الصابئة في ايام تافرنييه ، أي قبل ثلثمائة سنة ، زهاء مائة الف صابيء . ولكن هذا العدد اخذ يتناقص ويتضائل بمرور الاعوام . وليس بيدنا احصاء دقيق بعدد نفوسهم اليوم . انما نورد فيما يلي ما ذكره بعض المؤلفين

العراقيين بصدد عددهم ، ابتداء من الاقدم :

١ — الاب انستاس ماري الكرملي : الصابئة او المندائية (ظهر تباعاً في مجلة « المشرق » البيروتية في السنوات ١٩٠٠ — ١٩٠٢ م) . قال : « قد احصيت بنفسي عدد الصابئة بلدة بلدة ، فوجدتهم لا يزيدون على ١٨٠٠ نسمة ، وهم يسيرون الى الانقراض حثيثاً » .

٢ — هاشم السعدي: جغرافية العراق الحديثة (بغداد ١٩٢٤) قال (ص ٨٢) ان نفوسهم ٨٥٠٠ نسمة .

٣ — عبد الحميد عبادة : مندالي او الصابئة الاقدمون (بغداد ١٩٢٧) قال (ص ١١) ان نفوسهم ٥٠٠٠ .

٤ — طه الهاشمي : مفصل جغرافية العراق (بغداد ١٩٣٠) قال : (ص ١٦٠) ان نفوسهم ٨٠٠٠

٥ — السيد عبد الرزاق الحسني : الصابئة قديماً وحديثاً (القاهرة ١٩٣١) قال : (ص ٦١) ان نفوسهم ٥٣٠٠ ونقل رأي بعض الصابئة القائل ان عددهم يربو على ١٠٠٠٠ نسمة .

الملحق رقم (٢٥)

(راجع الحاشية ١٠٦ ، الحاشية ١)

تفضل الاستاذ عبد الجبار عبد الله فكتب فيما يلي وصفاً دقيقاً لما يجري في حفلة الزواج عند الصابئة قال :

يخلط المؤلف كثيراً في وصف حفلة الزواج . والصحيح ان الكهنة الذين لهم الحق في عقد المهر صنفان : الاول يسمى « الكنزبرا » وهو الذي يعقد مهر العذارى ، والثاني يسمى « الابيسق » وهو الذي يعقد الثيب . والكاهن الثاني اوطأ مرتبة من الاول ، كما انه محروم من كثير

من الحقوق الدينية التي يمارسها « الترميذة » او الـكنزبرا . فمثلاً انه لا يحق له ان يعمذ .

واما كيفية معرفة العروس والتأكد منها ، فقد جرت العادة ان يترك الامر الى امرأة يثق الـكاهن بها . ويعتمد عليها . وليس من الضروري ان تكون زوج الكاهن نفسه حتى ولا ان تكون صابئية . وفي الوقت الحاضر يعمد بعضهم الى استحصال تقرير طبي من طبيبة او ممرضة رسمية .

وأما وصف حفلة الزواج ، فكما يأتي :

يقوم احد الـكهنة من درجة الترميذة بتعميذ العروس والعريس كل على انفراد . ثم يعمذهما كاهن آخر كلا على انفراد ايضاً ثم يجلس الـكنزبرا (أي رئيس الـكهنة) في وسط مظلة من القصب يسمونها « المجلس » ، ويجلس الى جانبه كاهنان من درجة الترميذة يقومان بدور شاهدين وبعد ان يقرأ الجميع صلوات خاصـــة خارج المجلس يجلس العريس الى يسار الـكنزبرا مرتدياً ملابس مشابهة لتلك التي يرتديها الـكهنة ويسمونها « الرستة » ويقرأ الـكنزبرا الصلوات الخاصة بالزواج في كتاب خاص يسمونه « القلستة » ويحضر والد العروس او من ينوب عنه ، ويشهد بانه زوج ابنته من العريس ، ويصافح العريس على ذلك . ثم يذهب الـكنزبرا الى العروس التي تكون في غرفة خاصة بها ويسألها عما اذا كان الزواج برضاها ، واذا لم تكن مجبرة على تلك الزيجة . ويقرأ عليها صلاة خاصة ثم يعود الى المجلس وبعد ان يقرأ صلاة خاصة يأخذ العريس الى عروسه ويقدمه اليها ويحلفه بانه لا يخونها ولا يظلمها .. الخ كل ذلك وفقاً لما هو مكتوب في القلستة التي يقرأها . .

واذا كانت العروس ثيباً ، فيقوم الابيسق بقراءة القلستة بدلا من الـكنزبرا ويقرأ الصلاة نفسها .

اما يوم العقد ، فيجب ان يكون يوم الاحد ، لانهم يقدسون هذا اليوم . وليس صحيحاً ان الكاهن يختار يوماً يوافق طالع العروسين .

الملحق رقم (٣٦)

(راجع الصفحة ١١٧ ، الحاشية ١)

العمادية من اعظم القلاع العراقية وأبعدها شهرة ، تقوم في شمالي الموصل على بعد ١٦٨ كيلو متراً منها . وهي مبنية فوق جبل لا يرام الا بجهد ومشقـــة .

وللعمادية ، تاريخ طويل حافل واقدم ما انتهى الينا من اخبارها يرتقي الى يام الدولة الاشورية ، في المائة التاسعة قبل الميلاد ، ثم تقلبت بها الاحوال من بعد الاشوريين ، فدخلت في حكم دول ودويلات اسلامية واما اليوم فهي مركز قضاء العمادية بلواء الموصل .

العمادية في العصر الاشوري :

تفضل الاستاذ طه باقر بكتابة النبذة الثمينة التالية بهذا الصدد فقال :

« العمادية هي « أمات » Amat الواردة في المخطوطات الاشورية ولعل أقدم ذكر لها في سجلات (اخبار) الملك الاشوري « شمسي اداد » الخامس (٨٢٣ — ٨١٠ ق م) الذي خلف اباه شلمنصر الثالث . وقد ذكرها من جملة المدن التي هيجها اخوه « اشور - دانن — ابلى » في حياة أبيه ليأخذ العرش لنفسه بدل الوريث الشرعي « شمسي — اداد » الخامس . اما محل ورودها فانه في مسلة شمسي - اداد التي وجدت في القصر الجنوبي الغربي في نمرود (الآن في المتحف البريطاني رقم ١١٠) (وقد نشر نصها في Rawlinson, Cuneiform Inscriptions of Western Asia, I, Plates -29-31 ونشر ترجمتها الى الانكليزية

Luckenbill, Ancient Records, I,253 ff.

وموضعها في الفقرة ٧١٥ من المصدر ذاته . وذكرها الملك الاشوري اداد – نراري الثالث (٨٠٥ - ٧٨٢ ق . م .) ابن شمسي اداد الخامس في مسلته التي هي الآن في متحف استانبول (انظر فقرة 736 المصدر ذاته Luckenbill,) وبقيت « أمات » مدينة حتى العصر البابلي الحديث (الكلداني) . (انتهى كلام الاستاذ طه باقر)

العمادية في العصور الاسلامية :

قال ياقوت (معجم البلدان ٣ : ٧١٧ طبعة وستنفلد) في وصفها انها « قلعة حصينة مكينة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها عمرها عماد الدين زنكي بن آق سنقر في سنة ٥٣٧ هـ ، وكان قبلها حصناً للاكراد فلكبره خربوه فاعاد زنكي وسماه باسمه في نسبه اليه ، وكان اسم الحصن الاول آشب » .

وقال في مادة آشب (معجم البلدان ١ : ٦٣) : « آشب ، بكسر الشين كانت من اجل قلاع الهكارية ببلاد الموصل ، خربها زنكي بن آق سنقر وبنى عوضها العمادية بالقرب منها ، فنسبت اليه » .

فبمقابلة هذين النصين يفهم ان موقع آشب القديم لم يكن في مكان العمادية ، بل كان « قريباً » منه .

وفي « نزهة القلوب » لحمد الله مستوفي القزويني (ص ١٠٥ طبعة لسترنج) ان « العمادية مدينة كبيرة ، جدد عمارتها عماد الدولة الديلمي (المتوفى سنة ٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م) وسماها بالعمادية هواؤها لطيف للغاية ، وحقوق ديوانها ٦٨٠٠٠ دينار » .

فهذا القول مخالف لما ذكره بلدانيو العرب ومؤرخوهم من ان مجدد

العمادية كان عماد الدين زنكي لا عماد الدين الديلمي .

وفي « تقويم البلدان » لابي الفداء (ص٢٧٥ طبع باريس) اشارة الى العمادية ، قال : « ومن بلاد الجزيرة العمادية ، وهي قلعة عامرة على ثلاث مراحل من الموصل من الشرق والشمال ، وهي على جبل من الصخر في الوطأ ، وتحتها مياه جارية وبساتين وهي في جهة الشمال عن اربل » .

وفي الكامل لابن الاثير اشارات عديدة الى العمادية ، فقد ذكر في (٩ : ٨ طبعة ترنبرغ) ان زنكي فتح قلعة آشب وخربها وبنى عوضاً عنها قلعة العمادية .

وقال في حوادث سنة ٥٣٧ هـ (الكامل ٩ : ٦٠) ان في هذه السنة « ارسل اتابك زنكي جيشاً الى قلعة آشب ، وكانت اعظم حصون الاكراد الهكارية وامنعها ، وبها أمواظم وأهلهم ، فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها ، فامر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضاً عنها »

وأشار في حوادث سنة ٥٦٣ هـ (٩ : ٢١٨) الى ان العمادية كانت من جملة املاك زين الدين علي بن بكتكين وقد كان ابتداء تملكه اياها في سنة ٥٣٩ هـ

وفي احداث سنة ٦١٥ هـ ساق ابن الاثير (الكامل ١٢ : ٢١٩-٢٢٠) خبر محاصرة جيش بدر الدين لؤلؤ قلعة العمادية ، وكان فيها اذ ذاك عماد الدين زنكي ، وارتداد جيش بدر الدين عنها خائباً ، لتعسر اقتحامها ، ولكثرة الثلج المتساقط في تلك البقاع اذ كان الموسم شتاء . فاستتب الامر لعماد الدين في هذه القلعة .

وذكر في احداث سنة ٦٢٢ هـ (١٢ : ٢٨٩ — ٢٩١) ما كان من تملك بدر الدين لؤلؤ قلعة العمادية بعد ان استعصت عليه في سنة ٦١٥ هـ . وكانت العمادية حين تملكها بدر الدين بيد اولاد خواجه ابراهيم . .

وقال محمد امين زكي (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص ١٩٤) ان في سنة ٩٤٨ هـ (١٥٥١ م) اضطرت الحكومة العثمانية في عهد السلطان سليمان لتجريد حملة مؤلفة من قوات امراء العمادية وغيرها لمطاردة الامير الايراني الذي رفض الذهاب الى استانبول .

وقال في ص ٢١٥ ان العمادية كانت حتى سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) مستقلة تحت ادارة امراء الاكراد ، ولم تخضع للتابعية العثمانية الا في سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٦٠ م) .

وقال ايضاً في ص ٢٣١ ان عبد الباقي باشا والي الموصل اغار سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) على العمادية فقتل ونهب وسلب .

وذكر في ص ٢٤٤ ان محمد باشا امير راوندز استولى على العمادية في سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) .

ثم قال في ص ٢٤٨—٢٤٩ ان اسماعيل باشا البهديناني استولى على العمادية والبلاد المحيطة بها بعد رسول بك أخ محمد باشا . ولكن البلدة لم تبق بيده مدة طويلة ، فان محمد باشا اينجه بيرقدار متصرف الموصل ، زحف سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) بجيش على العمادية فاستولى عليها ، ولكن اسماعيل باشا استردها سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) . ثم ان محمد رشيد باشا استولى على القلعة وقبض على اسماعيل باشا فارسله الى بغداد وزجه في سجنها ، وانتهى بذلك عهد هذا الامير البهديناني .

ولقد عقد الامير شرف خان البدليسي فصلاً طويلاً في حكام العمادية البهدينانيين (شرفنامه . ص ١٤٥—١٥٦ طبع القاهرة)

ومنه يستخلص ان نسب حكام العمادية يتصل بالخلفاء العباسيين . وتقول رواية اخرى انهم ينتمون الى شخص آخر اسمه عباس . وكان اصلهم من قلعة طاورون من اعمال شمس الدينان ويسميهم امراء كردستان

بهادينان . والرواية الصحيحة ان اولاد بهاء الدين بقوا يحكمون العمادية مدة اربعمائة سنة . ان الحكام الذين حكموا العمادية من نسل بهاء الدين لا يعرف بعضهم . واما المعروفون منهم فهم :

الامير زين الدين ، والسلطان حسين ، وقباذ بك ، وبيرام بك ، وسيدي خان بك بن قباذ بك .

ان اول هؤلاء الحكام حكم العمادية في زمن الامير تيمور كوركان ، وآخرهم دخل العمادية سنة ٩٩٣ هـ

الملحق رقم (٢٧)

(راجع الصفحة ١٢٤ ، الحاشية ٢)

تقول دائرة المعارف الاسلامية (مادة : عانة) انها مدينة عريقة في القدم ، وهي من مدن الجزيرة ، عرفت في الكتابات المسمارية باسم خانات (Khanat) وفي المراجع الاغريقية باسم اناثا (Anatha) ، وفي الكتابات التدمرية باسم عانة ، بكونها محطة عسكرية . وسماها الارميون عانات ؛ وبالسريانية عانث ويزعم بعضهم ان اسمها ارمي الاصل ، معناه « بيت الماعز » .

ويقول العلامة المستشرق موسيل (Alois Musil) في كتابه :
The Middle Euphrates (New York, 1927; p. 203)

« كانت عانة المعسكر السابع والعشرين في الطريق الذي انشأه الملك الاشوري توكولتي انورتا . فقد كان معسكره قبالة جزيرة عانات في أرض سوخي ، وعانات هي عانة الحالية التي بني جامعها الكبير وقلعتها في جزيرة تبعد ١٦ كيلو متراً من سور »

ويقول (ص ٢٦١) ان مدينة آنات هي التي اصبحت « عانات » في العصور الوسطى ، وعانة الوقت الحاضر.

ويقول ايضاً (ص ٣٤٥ — ٣٤٩) ان مركز عانة ، يقوم في الاصل في الجزر التي كانت كثيرة الخصب دائماً . ولم تكن في الازمنة السالفة على ما هي عليه اليوم من امتداد ، ولم يكن اهلها في منجاة من غزوات البدو فحسب ، بل ان مركزها ساعدهم على اخضاع المواطن المحيطة بها . ولهذا السبب كان الاشوريون عادة يجعلون سادة عانة حكاماً على مقاطعة سوخي وكان الملك توكولتي انورتا الثاني (٨٨٩ - ٨٨٤ ق . م) قد تسلم الجزية من « ايلو ابني» عميد سوخي الذي كان يسكن في بلدة آنات الواقعة في منتصف الفرات .

ومر اسطول الانبراطور تراجان الروماني بجزيرة اناتا .

وان ممين احد قواد الملك الساساني سابور الثاني (٣٠٩ ٣٧٩ م) بعد ان تنصر و بنى كنائس وديارات في سنجار . ذهب الى عانات حيث بنى له على ضفاف الفرات ، على ميلين من عانات منسكا . عاش فيه سبع سنوات .

وكانت قلعة اناتا تقع في جزيرة . وفي سنة ٣٦٣ م حاصرها الاسطول الروماني فاحرقها وهرب اهلها منها وفي اليوم التالي غرقت عدة سفن من هذا الاسطول لاصطدامها بسدود كانت بنيت في النهر لاجل الري .

وكان مبارك المعاصر لبرعيتا في منتصف القرن السادس للميلاد من ابناء عانة ، وهي بلدة على نهر الفرات .

وفي مبدأ سنة ٥٩١ م ارسل وراموس (Varamus) جيشاً الى قلعة عانة الواقعة على الفرات قرب قرقيسيا لصد كسرى من الرجوع الى بلاد فارس ، ولكن الجنود قتلوا قائدهم واعلنوا الانضمام الى كسرى .

وفي بدء القرن السابع أقام أسقف بدو التغلبية في عانة .
وقد تطرق امرؤ القيس ، والاخطل ، وعلقمة في اشعارهم الى خمرة عانة
وفي كتاب الخراج لابي يوسف (ص ١٨٥) :
وقد كان خالد بن الوليد مر ببلاد عانات فخرج اليه « بطريقها » ، فطلب الصلح ، فصالحه وأعطاه ما اراده على ان لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ، وعلى ان يضربوا نواقيسهم في اي ساعة شاءوا من ليل او نهار الا في اوقات الصلوات . وعلى ان يخرجوا الصلبان في ايام عيدهم . واشترط عليهم ان يضيفوا المسلمين ثلاثة ايام . ويبذرقوهم (أي يخفروهم)
ويذكر ابن خرداذبه في المسالك والممالك (ص ٧٤) عانة من عمل الفرات .

ويقول قدامة في الخراج (ص ٢٣٣) ان الفرات « يمر بالرحبة ، ثم يمر حتى يلتحف على عانة لانها في وسطه ، ثم يمتد على سمته ويمر بهيت والانبار » .

وقد اشار الهمذاني الى عانة بكونها من المدن المشهورة بخمرها .
وقال المقدسي ان اكبر المدن على الفرات رحبة ابن طوق ، وكذلك قرقيسيا وعانة والدالية والحديثة .

وقد وصف الشابشتي في كتاب الديارات دير ماسرجيس بقوله « هذا الدير بعانة ، وعانة مدينة على الفرات عامرة ، وبها هذا الدير ، وهو كبير حسن كثير الرهبان ، والناس يقصدونه للتنزه فيه وهناك كروم ومعاصر وبساتين وشجر . والموضع في نهاية الحسن »
وفي سنة ١٠٠٨ الى ١٠٠٩ م راسل ابن عكاش أهل عانة فاطاعوه ، وأخذ رهائنهم ، ثم خرجوا عن طاعته ، فسار اليها ولكن صالح بن مرداس الكلابي وضع من يقتله فقتل غيلة فملك هذا عانة والرحبة بمفرده

(راجع ابن الاثير ٩ : ١٤٨) .

وفي سنة ١٠٢٣ الى ١٠٢٤ م اجتمع حسان امير بني طي ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان وتحالفوا واتفقوا على الحاكم المصري بالشام على ان يكون من حلب الى عانة لصالح ، ومن الرملة الى مصر لحسان ، ودمشق لسنان . واالح صالح بفتح جميع البلاد من بعلبك الى عانة ، واقام في حلب ست سنوات (ابن الاثير ٩ : ١٦٢)

وفي معجم ما استعجم للبكري (ص ٩٤١) « وكانت عانة وهيت مضافتين الى طساسيج الانبار . وكانت الخمر الطيبة تنسب اليها فلما حفر انوشروان الخندق من هيت حتى يأتي كاظمة مما يلي البصرة وينفذ لى البحر، وجعل المناظر لعيث العرب في ارض السواد وما يليه ، خرب عانات وهيت بذلك السبب »

ويقول موسيل انه فحص الارض من جنوب غرب هيت الى مسافة تقرب من ٢٥٠ كيلو متراً دون ان يقع على معالم أي خندق رغم انه اجهد نفسه للحصول على اثر واحد له ، فقد تكون القصة مستندة الى التكوين الطبيعي للارض ، اذ انه على مسافة ٥٥ كيلومتراً جنوب شرقي هيت يبدأ نجد طار الحيبان وطار الصبهد وغيرها من النجود التي تمتد شرقاً ، ولكنها تشرف من الغرب على منخفض البحرة وجفر الملح مع جرف قائم الانحدار نوعاً ما ، على ان في هذا الجرف فجوات في بعض مواضعه تختلف في السعة يمكن تتبعها مسافة بعيدة الى الجنوب الشرقي ، ولا يزال يشاهد حتى الآن ، على بضعة كيلو مترات اسفل هيت بقايا نهر كبير للري ، يمتد الى النقطة التي يبدأ منها جرف طار الحيبان الطبيعي . ان جميع المخافر الفارسية المحدود شيدت الى شرق الجرف الذي كان يشكل لها نوعا من خط تحصين

مايبمي . اذ لا يمكن ان تصمدها الابل العربية بركابها واحمالها الا في المواضع القابلة للعبور .

وذكر ابن الاثير (١٠ : ٢٢١) ان اهل عانة نسبوا الى الباطنية قديماً ، فانهي حالهم الى الوزير أبي شجاع (١٠٨٣ ١٠٩١ م) أيام المقتدي بامر الله فاحضرهم الى بغداد ، فسأل مشايخهم على الذي يقال فيهم فانكروا وجحدوا فاطلقهم

وفي تشرين الاول ١١٠٣ م استولى التركمان على مدينة عانة وحديثة ، وكانت بيد بني يعيش ، فقصد بنو يعيش سيف الدولة صدقة بن مزيد ومعهم مشايخهم ، فسألوه الاصعاد اليها وان يتسلمها منهم ، ففعل واصعد معهم ، فرحل التركمان عنها وعاد الى حلته فرجع اليها التركمان وملكوها ونهبوا وسبوا جميع اسبابها وانحدروا طالبين هيت من الجانب الشامي فبادروا الى قريب منها ، ثم رجعوا من يومهم لما جاءهم خبر جيش سيف الدولة مقبلا اليهم (ابن الاثير ١٠ : ٢٥٢) .

وفي سنة ١١٤٣ الى ١١٤٤ م استولى اتابك زنكي على عانة .

وكتب الادريسي ان عانات بلدة صغيرة في جزيرة في الفرات ، فيها أسواق وصناعات .

وفي ياقوت (٣ : ٥٩٤) ان عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت ، يعد في اعمال الجزيرة ، وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة ، وبها قلعة حصينة . ولما بلغ الملك انوشروان ان طوائف من الاعراب يغيرون على ما قرب من السواد الى البادية . امر بتجديد سور مدينة آلوس ، كان سابور ذو الاكتاف بناها وجعلها مسلحة لحفظ ما قرب من البادية . وأمر بحفر خندق يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة ، وينفذ الى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعاً لاهل البادية عن

السواد . وكانت هذه المسالح سبباً في خراب هيت وعانات .

ان الملك انوشروان الذي ذكره البكري وياقوت كان كسرى الاول (٥٣١ — ٥٧٨ م) وآلوس هي محطة آلوسة على نحو ٦٠ كيلو متراً جنوب غربي هيت ، والملك سابور هو سابور الثاني (٣٠٩ — ٣٧٩ م) واستناداً الى هذه الاخبار ، فان هيت وعانات سقطتا لانهما كانتا شمال غربي مسالح الحدود ، ولان مسلحة قلعة آلوس لم تطق الدفاع عنهما .

وفي ١٢٣٨ م حكم عانة والرحبة والخابور صاحب حمص .

وفي آخر كانون الثاني ١٢٣٩ م (ابو الفداء ٤ : ٤٣٨ و ٤٦٠ وما بعدها) تخلى نجم الدين ايوب عن سنجار والرقة وعانة للامير يونس الملك الجوادالذي باع عانة من الخليفة المستنصر وبعد هذا البيع اجتاز الامير يونس البادية الى غزة والتحق بالصليبيين في حصن عكا .

وفي ربيع ١٢٤١ م كانت عانة من املاك الخليفة . وان الخوارزميين الذين فروا من تعقب الملك المنصور لهم بعد أن انتهى من فتح تل خابور وقرقيسيا ، اتخذوا منها ملجأ لهم .

وفي ١٢٥٣ — ١٢٥٤ م افرج بشفاعة الخليفة المستعصم عن الملك الناصر داود صاحب الكرك وكان قد اعتقله الملك الناصر يوسف بقلعة حمص ، وأمره ألا يسكن في بلاده ، فرحل الناصر داود الى جهة بغداد فلم يمكنوه من الوصول اليها ، وطلب وديعته الجوهر ، فمنعوه اياها ، فبقي الناصرداود في جهات عانة والحديثة ، وضاقت به الاحوال وبمن معه فاتفق ان الاشرف صاحب تل باشر وتدمر والرحبة يومئذ ارسل اليه سفينتين موسقتين دقيقاً وشعيراً . واخيراً اذن له في النزول بالانبار وبينها وبين بغداد ثلاثة ايام .

وفي آثار البلاد للقزويني (ص ٢٨٠) : عانة بليدة بين هيت والرقة

يطوف بها خليج من الفرات ، وهي كثيرة الاشجار والثمار والكروم ، ولها قلعة حصينة . ولكثرة كرومها العرب تنسب اليها الخمر واهل بغداد اذا شاهدوا ظلماً قالوا الخليفة اذاً في عانة ، وزمن هذا القول ١٠٥٩ م لما كان الخليفة القائم بامر الله محبوساً في عانة ولم يعد منها حتى ربيع ١٠٦٠ م

وفي آخر آب ١٣١٦ م سار مهنأ بن عيسى وكان نازلا بالقرب من عانة الى خربندة كبير المغول ، واجتمع به بالقرب من قنغرلان ، ثم عاد الى بيوته . (ابو الفداء ٥ : ٣٠٨)

وفي تقويم البلدان لابي الفداء (ص ٢٨٧) عانة بلدة صغيرة على جزيرة في وسط الفرات .

ويقول الحاج خليفة (فذلكة تواريخ) ان في سنة ١٦٩٦ م كان أمير عانة وحديثة أحمد أبا ريش .

وفي ١٦٢٩م جاء الاب فيليب الكرملي بعد مسيرة مرحلتين من الطيبة الى الربية (الرحبة) على نشز قريب من الفرات . بعد ان سار قليلا وجد جزراً صغيرة قرب عانة . ويقال ان هذه البلدة كانت اكبر بلدان البادية ، وظلت مشهورة حتى خربها الفرس قبل ذلك بسنوات قلائل ، وكانت تمتد على ضفتي الفرات مسافة ميل عند قاعدة جبل كان يفصلها عنه سور . وكان في جزيرة في النهر قلعة تصلها النيران المصوبة من الجبال المحيطة بها . وكانت عانة في زمنه نصفها خرب ، ويسكنها العرب واليهود فقط .

وقد زارها تافرنييه في اواسط القرن السابع عشر ووصفها (كما مر بنا)

ويروي دلافاله في رحلته ، ان عانة تقوم على ضفتي الفرات الذي يعبر بالقوارب ولاهل عانة عدد كبير منها وفي كل جانب شارع واحد يزيد طوله على خمسة اميال . ومعظم الاكواخ مشيدة بالطين واكنتها مريحة

ولطيفة . ولكل بيت بستان فيه الاشجار والنخيل والبرتقال والتين والزيتون والرمان وما اليها .

وفى النهر عدد من الجزر تنمو فيها الاشجار المثمرة ايضاً . وفي الجزيرة الوسطى قلعة . اما البلدة فلا يحيط بها سور ولكن الجروف القائمة الانحدار التي تسدها البساتين من الخلف تترك من نهايتيها ممراً ضيقاً بمحاذاة النهر وكانت الجروف قائمة الانحدار بحيث يصعب الدخول الى المدينة منها وكان أمير البلدة وكل البادية الامير فياض (Feiad) وكان له بيت جميل هناك ، ولقبه ابو ريش . ومع ان بعض سكان عانة يشهدون انهم مسلمون ، الا انهم يعتنقون عقيدة مختلفة اذ انهم ينسبون لمذهب باطني .

وكان الامير فياض ابو ريش من قبيلة الموالي التي تسيطر على الضفة اليمنى للفرات ، من تدمر الى الكوفة .

وفي منتصف القرن السابع عشر كانت عانة وبيره جك تؤلف قسما من عمل الرقة اما باشى فتلحق بحلب .

ويقول الحاج خليفة في (جهانما) ان عانة البلدة القائمة في الجزيرة ، تقع فوق هيت والحديثة على حدود ايالة بغداد . ويقال انها البلدة الوحيدة في هذه المنطقة التي ينمو فيها الزيتون ولها صيت بعيد بكونها مولد كثير من العلماء والاولياء والموسيقيين والطبيعيين . وكان يسكنها سابقاً عدد وافر من النصيرية ، ولكن لم يبق منهم في القرن السابع عشر غير عدد قليل .

ويقول اوليا چلبي ان عانة من أعمال الرقة .

وفي ١٨٠٧ م نهب سعود بن عبد العزيز وجماعته الوهابيون عانة ودير الزور .

الملحق رقم (٣٨)

(راجع الصفحة ١٢٥ ، الحاشية ١)

هي « رحبة مالك بن طوق » حسبما يؤخذ من سياق الرحلة . قال ياقوت في وصفها (معجم البلدان ٢ : ٧٦٤) : « رحبة مالك بن طوق : بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، والى بغداد مائة فرسخ ، والى الرقة نيف وعشرون فرسخاً . وهي بين الرقة وبغداد ، على شاطيء الفرات أسفل من قرقيسيا . قال البلاذري : لم يكن لها أثر قديم ، انما احدثها مالك بن طوق بن عتاب التغلبي في خلافة المأمون . . » .

وقد ذكر ابن الاثير (الكامل ٧ : ١٨٨ طبعة ترنبرغ) ان مالكا هذا توفي سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ - ٨٧٤ م) .

وذكر موسيل في كتابه :

(The Middle Euphrates. New York, 1927; P. 344)

« ان رحبة مالك اصابها الزلزال فدمرها سنة ١١٥٧ م . الا انه في سنة ١٣٢١ م ، أمر شيركوه بن محمد صاحب حمص ، باعادة بنائها وكانت في زمنه مركزاً كبيراً للقوافل بين سورية والعراق ... اما مشهد الرحبة الذي ذكره تافرنييه ، فهو في الواقع البقعة المحصنة المساة « المشهد » أو « مشهد علي » ، وتبعد ٩ كيلو مترات عن جنوب غربي قلعة الرحبة « قرب الميادين » .

(انتهت الملاحق التي وضعها المترجم)

المستدركات

الصفحة	
١٣	الاسم الكامل لمترجم رحلة تافرنييه الى الانكليزية هو ج . فيلبس (J. Phillips)
١٣	يضاف بعد السطر ١٢ ما يلي : ونقل كمپل طمسن رحلات تافرنييه في بلاد ما بين النهرين وطبعها بعنوان : R. Campbell Thompson: Tavernier's Travels in Mesopotamia (London, 1910) ونقل نظم الدولة أبو تراب نوري ، رحلة تافرنييه بكاملها الى الفارسية ، وطبعها في طهران سنة ١٣٣١ هـ ، في ١٠٣٥ صفحة وقد أطلعنا على نسخة منها الاستاذ عباس العزاوي
٧٢	يضاف الى الحاشية ٢ ما يلي : وللاستاذ يعقوب سركيس بحث مطول في هذا الشأن بعنوان « التتن في العراق : وجوده وزرعه قبل نيف وثلاثمائة عام » وقد نشر في مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١ .
١٠٢	يضاف الى الحاشية ٣ ما يلي: أفادنا الاستاذ يعقوب سركيس ، ان اسم « الدجة » او « الدكة » ورد في مخطوط في خزانته ، بعنوان « تحفة الازهار وزلال الانهار » للسيد ضامن ابن السيد شدقم (المجلد ٣ ص ١٤) وذلك في حوادث سنة ٩٩٩ هـ (١٥٩٠) م) .

١ – فهرس الامكنة والبقاع

٢ – فهرس الاشخاص

٣ – فهرس المراجع

٤ - محتويات الكتاب

الصفحة

